السابعة ونصف صباح الثلاثاء

قصص قصيرة

محمد حامد

دار المحرر الأدبي

خجول

خجول بطبعه، ضعيف الثقة بنفسه، إن تحدث ظن حديثه مملولا[1] فيقتضبه، أو معروفاً فتحمر بالخجل وجنتاه، ويبتل بالعرق جبينه. . ويحاول التخلص من موضوعه فلا يعرف، فيتلعثم لسانه، ويموت على شفتيه كلامه. إذا أراد شراء حاجة، كان كمن يحاول فعل شيء محرَّم، فهو يخرج من شارع إلى شارع، ويمر من أمام حانوت إلى أمام حانوت[2]، دون أن يجرؤ على دخول واحد منها!! ولا يزال كذلك حتى تكل رجلاه، فينكفئ راجعاً إلى بيته؛ فإذا كانت الحاجة شديدة، نسي خجله لحين، ثم استجمع ما استطاع من الشجاعة، ودخل رابع حانوت يقابله. فيطلب ما يشاء في صوت المسترحم، فإذا ما أحضر إليه، لم يفكر في جودة الصنف ولا في غلاء الثمن. . بل يؤدي الثمن فوراً. . ويغادر المحل منتصراً. .!!

---

(1) أصَابَهُ الملال وتقلب مَرضا أو غما

(2) الحانات: المواضع التى يباع فيها الخمر.

إذا قابل صديقاً انضمت يمناه إلى يسراه وأخذتا تتحاكّان! فإذا كانت إحداهما مشغولة، ارتفعت الثانية إلى ذقنه. . أو إلى قبعته. . أو إلى أذنه. . . . .

والسلام! أمر ما أشقه! فهو يبدأه والصديق على مسافة طويلة، ثم يحيي بصوت خافت لا يكاد هو يسمعه.

هذا إذا كان الصديق بإزائه، ولا مفر له من لقائه، أما إذا استطاع أن يهرب فهو يوفر على نفسه كل هذا العناء في خفة يحسده عليها اللص!

إذا دعوته إليك، اعتذر وبالغ في الاعتذار، فإذا ألححت في الدعوة، دفعه خجله إلى الإجابة، وكم تكون تضحيته عظيمة في هذه الحالة! فهو يتحمل ساعة ما أشقها على نفسه! كلها عمل وإجهاد فكر. . . لا يكاد يدخل الحجرة حتى يصطدم بأول كرسي يقابله، فإذا ما حاول إعادته إلى وضعه الأول اصطدمت يده بالمنضدة. . . .

إذا قدمت إليه القهوة اعتذر عن شربها. . ولكنه يتناول الفنجان عندما يقدمه إليه صديق، ولا يكاد يمسكه حتى تقوم في الفنجان عاصفة تدفع بالقهوة يمينا وشمالا، ولا مفر لها من هذا الاضطراب، ما دام هو بعينه حال يده. . !!

إذا طلب إليه صديق أن يقرضه مبلغا من المال، امتدت يده إلى جيبه فأخرج المطلوب دون وعي ولا تفكير!!

وقد يحتاج هذا المال بعد أيام، وتضطره الحاجة إلى الذهاب إلى صديقه، فإذا ما بلغ البيت نسي سبب المجيء، وكاد يعود أدراجه. . ولكن الحاجة تلح عليه. . فتدفعه إلى داخل المنزل. . فإذا ما قابل الصديق نسي كل شيء. . !!

وهو شاب مثقف، له غرام بالأدب الحديث، وله آراء سديدة فيه، ولكنه عندما يعارَض، ينسى آراءه ويعتقد أنها خاطئة، وإن كان لا يعرف وجه الخطأ فيها. . . !!

قدِّر لي أن أسمع حديث حبه وغرامه. . ، وقد كان هذا منه غريبا، ولكن أغرب منه غرامه، فقد رأى حبيبته

مارة أمام بيته في خفة الغزال، وجمال الزهرة، فأعجب بها، ووقع في شراك حبها . . ، وكان يظفر منها كل يوم بنظرة في هذا المكان وفي هذا الوقت . . أما اسمها ومنزلها وأسرتها فذلك أبعد شيء يفكر فيه . . .

القلب المحطم

بغير هذا اللون من الصور الشاحبة الحزينة، كنت أود أن أصور لك عواطفي ومشاعري، وبغير هذه السطور التي تترقرق في خلالها دموع البث والشكوى، كنت أحب أن يجري بالكتابة إليك قلبي. ولكني لا أريد أن أخدعك في شأن من شئون نفسي. وما أحسبك تريدني علي أن أصنع لك كلاما عن راحة القلب وهدوء الضمير في الوقت الذي تعصف بي الأحداث فيه عصفا يزلزل كيان النفس، ويزعزع أشد الأفئدة احتراماً لقوانين الأرض، وإيماناً بعدالة السماء، لقد شغلت في مطالع الشباب وبواكر الصبى بما يشبه أن يكون استجابة حارة لرغبات القلب ونوازع الهوى، وألهتني متعة اليوم عن التفكير فيما عسى أن يطلع به الغد، وقنعت بتلك النشوة التي يملأ بها الحب شعاب القلب في عالم تتألق حواشيه بالبسمات والأحلام. وكنت لغفلتي أحسب الحياة ستظل على هذا النحو رخية لينة، وأن الحب ما دام يعمرها ويخلع عليها من مفاتنه سلاما وابتساما ونورا، فثمَّة مُلقى العصا، وغاية الأمل، ونهاية المطاف.

فلو أنني أحطت هذه الحياة الأثيرة لديَّ بسياج يكفل لها على الأيام بقاءً واطرادا لما تعثرت في أذيال هذه الخيبة الأليمة. ولما صرت إلى ما أعانيه اليوم من تعس وشقاء.

أيها القلب! لقد سعدت بالحب حلما ذهبياً سلسل في نواحيك الأمل، وأشاع في جوانبك الرجاء، ولكنك شقيت به يقظة رهيبة تكشفت لك في ضوئها عناصر الجريمة من خيانة وغدر وعبث أليم بقداسة العهد والوفاء. فهل تراك يا قلب معتبرا بما أسلفك الحب من تجاربه القاسية الأليمة، فتظل بنجوة عن الوقوع في شَرَك البسمات المغريات، والنظرات القاتلات، ترسلها العيون الذابلة المريضة؟ أتراك معتبراً بعد أن عرفت أن الحب إنما يصور لك الحياة روضة مسحورة تشدو بلابلها، وتَطرد جداولها، وتتأرج بالعطر الجميل أزاهرها؟ ثم.. ثم تجف الروضة وتغيض الجداول وتصمت الأطيار، وتتحطم الأماني، وتتبدد الأحلام. وإذا الدنيا مناحة قائمة. وإذا الحب الذي سعدت به تلك اللحظات الخاطفة يستحيل إلى حسرة الماضي، وفجيعة الحاضر، ولعنة المستقبل. وإذا تلك الأناشيد الداوية تحور

إلى أنين خافت، وآلام دفينة خرساء. وإذن ففيم هذا التهالك العجيب على تلك الشجرة الملعونة وقد بلوت المر من ثمرها؟ وفيمَ تلك الخفقات السريعة المتلاحقة كلما رَنَت إليك غانية[1] بنظرة. أو توامضت لك على شفتيها ابتسامة؟ وهذا الجسم الذي أذبلت زهرته، وأيبست عوده، وعطلت نشاطه، وصرفته عن مثله العليا، وفجعته في أقدس ما كان يرجيه من أمل ويحرص عليه من سعادة، ألا تأخذك فيه عاطفة من الإشفاق والرحمة، فتدعه يفرغ لما تتطلبه الحياة من جهاد طويل الشُّقة، وعر المسالك، فادح الأعباء. أيها القلب! إنك أن تظل سادراً[2] في غوايتك، فإني لأخشى أن أناجيك غداً بقول الشاعر:

أقول لقلبي كلما ضامه الأسى ... إذا ما أبيت العز فاصبر على الذل
برأيك لا رأيي تعرضت للهوى ... وقولك لا قولي، وفعلك لا فعلي
فإن تك مقتولا على غير بغية ... فأنت الذي عرضت نفسك للقتل

---

(١) الغَانِيَة الجارِيَةُ الحَسْناءُ، ذاتَ زَوْج كانَتْ أو غيرَ ذاتِ زَوْج، سميَّتْ غانِيَة لأنها غَنِيَتْ بحُسْنِها عَنِ الزينَة.

(٢) تائهٌ

أليس الخجل كالتردد (مرضا من الأمراض يصيب المرء في حياته العملية فيغل يده ويشل عقله) ويجعل الحياة في نظره عبثا لا يحتمل، ولغزا لا يحل؟

الخبز الرخيص

. . . وفتح الفتى عينيه ـ وكان يغمضهما كأنه يحلم ـ وألقى نظرة أخرى على ورقة من ورق الرسائل الأزرق منشورة أمامه.

ولم يكن يدري كم من الوقت مرَّ عليه وهو ـ على حالته هذه ـ أمام مكتبه، والقلم في يده، وعيناه مغمضتان، ورأسه يحس أنه يوازن كرة الأرض ويدور دورانها.

واعتمد بجبينه على راحة يده اليسرى، وأرسلها نظرة تائهة إلى الفضاء الذي يمتد أمام نافذته، وأخذ يستعيد ذكريات ساعات قريبة:

تذكر أنه كان جالسًا يقطع ساعة من ساعات الفراغ والوحدة المملة بالقراءة والتفكير، فسمع الجرس يدق خمس دقات ـ تتصل ثلاثتها الأولى وتقفوها دقتان منفصلتان ـ فأسرع إلى الباب يفتحه، وقد افترت شفتاه عن ابتسامة للوجه الذي سيطالعه، إذ كانت هذه الدقات سراً بينه وبين

فتاته اصطلحا عليها ، رفقًا بأعصابه التي لم تكن تتحمل ، حين يكون في انتظارها ، أن يدق الجرس ثم لا تكون هي الطارقة .

دق الجرس دقاته الخمس ، ولكنه حين فتح الباب تقدمت إليه فتاة أخرى ـ لا عهد له بها ـ تبتسم ابتسامة ناقصة ، فحار في تعليل هذا ولم يكد يبدأ التفكير حتى تقدمت إليه صاحبته ـ وكانت تختفي وراء مصراع الباب المقف ـ وهي تقول ضاحكة : (أقدم لم صديقتي وفاء) فمد لها يده يحييها ، ونظر لفتاته عاتبا وهو يقول : (يا شقية! متى تدعين هذا العبث؟)

وجلسوا ثلاثتهم وجعل الفتى يضحك ويتحدث كما هي عادته مع صديقته وصاحبتها ، إلا إنه كان يخيم على مجلسهم شيء من الفتور لم يكن يدري له سببًا . وكان يبدو على وجه الفتاتين كثير من التردد والانتظار ، ففترت رغبته في الحديث ولم يعلم ماذا تكون النهاية .

وكانت كلمات تحار على شفتي فتاته أمضها كتمانها ، فقامت وخطت خطوتين إلى النافذة ، وأطلَّت منها وعادت إلى حيث كان جالسًا وعلى محياها دلائل العزم والتصميم وقالت :

ـ حقي! (وهذا اسم الفتى) هات ورقة وقلما!

ـ ماذا تصنعين بهما

ـ لا تسألني!

وألقت نظرة إلى صديقتها وقدم لها هو ورقة من ورق الرسائل الأزرق وقلما فقالت :

ـ اجلس هنا .

وأشارت إلى المكتب فجلس وهو لا يدري ماذا يُراد به . فقالت :

ـ أكتب ما أملي عليك (وأخذت تملي)

٥ متر كريب ستان أسود، ٥ أمتار كريب جورجيت أسود. حذاء أسود رقم ٣٧ (أنيسيال) حرف (ل) وقالت كأنما تحدث نفسها:

ـ يكفي حرف واحد باسمي أنا (وكان اسمها ليلى!)

والتفتت إلى صديقتها قائلة: ماذا غير هذا؟

وقبل أن تجيبها قالت وكأنما تحدث نفسها مرة أخرى. . كفى!

فرفع إليها (حقي) عينين حائرتين يُسائلها ماذا تعني فقالت:

ـ سوف آتي يوم الثلاثاء القادم فأجدكَ اشتريت هذه الأشياء. إني اترك الاختيار لذوقك ـ ثم قالت:

ـ سوف ترى كيف أبدو في هذه الملابس.

فحاول أن يبتسم، ولكن شفتيه لم تنفرجا، وحاول أن يعلل مسلكها فلم يهتد إلى تعليل. ترى ما الذي دعاها لأن

تطلب منه هذا، وقد كانت ترفض أن يهدي إليها شيئًا مخافة أن يسألها ذووها عن مصدره؟ ثم هذه الطريقة التي طلبت بها ما طلبت. إنها لم تعجبه بل ومالنا لا نقول إنها ساءته وأمضته أيما مضَض.

وحاول أن يستبقيها حين همَّت بالرحيل ولكن الأعذار تسابقت إلى شفتيها. . . وسائلَ نفسه ـ وهو يسير معها إلى الباب يودعها وصديقتها ـ بماذا تراها تعلل مسلكها إن سألها عنه؟ ولم يجد جوابًا، وانتهى إلى أنها وضعت نفسها في مأزق سوف لا تدري كيف تخرج منه.

ووقف في أعلى الدَرج يتابعها بنظراته وهي تهبط، وطافت برأسه حكاية الغزال والثعلب فهمَّ أن يصيح بها. لمَ لم تفكري في الطلوع قبل ورود الماء؟ ولكن ارتدَّ عن هذا وعاد إلى مكتبه يفكر.

وهذا هو بعد فترة ـ لم يكن يدري مداها ـ قضاها شبه حالم في تأمل لم يخرج منه بطائل، ثم إنه حين فتح عينيه وعاد بعض الشيء إلى حالته الطبيعية تبين أنه كتب في غير

وعي على الورقة الزرقاء ـ التي لا تزال منشورة أمامه ـ باللغات التي يعرفها (أبدا . . . أبدا . هذا لن يكون . . !) ذلك بأنه كان قد انتهى إلى ما يشبه التصميم على إلا يلبي طلب الفتاة، وعلى أن يقطع علاقته بها وإن لم يكن يدري سبب هذا على التحقيق.

وجاء المساء فتوفر الفتى صدر ليلته على التفكير في فتاته وكأنما زايلته نفسه وقفزت إلى كتفه، وصارت تُساءله وتحاوره وتضحك منه ساخرة. قالت له نفسه:

ـ تريد أن تهجرها؟ أتراك تعني ما تقول؟ أتراك تستطيع أن تنسى؟ فمط شفتيه وهز رأسه وأقفل عينيه وهو يقول:

ـ النسيان؟ لقد جربته في الماضي ونجحت التجربة فمالي لا أحاول مرة أخرى؟

ـ أية مغالطة! أنك لم تنس أبدًا. لقد كنت تخدعني وتتناسى. ومع ذلك حاول هذه المرة أن تنسى: العينين الباسمتين دائما، العميقتين اللتين لم تكن تمل أن تحدق

فيهما، والشفتين اللتين كانتا تفترّان عن بسمات تسير على ضوئها أياما. . والقبلات التي كنت تقول إنها تعوض كل مفقود وتأسو كل جرح، وتعزى عن كل مصاب!

ـ كفى! كفى! دعينا من هذا!

ـ هي! لقد كنت ظننتك نسيت! وفي الحق مالنا ولهذا! أنت تريد أن تهجرها فهل بحثت عن سبب أطمئن إليه)

ـ كأنك لا تعرفينني! إني اقتل قلبي، ولا أجرح كبريائي.

ـ كبرياؤك؟ ماذا مسها؟

ـ لم أكن أظن أن فتاتي ـ كمن سبقنها ـ تريد أن تتقاضاني ثمن العاطفة كأن حناني لم يكن ثمنًا كافيًا!

ـ أي سبب؟! إنك لتتجنى عليها. لعلك تفيء إلى الحق فتعترف أنها نزوة تلك التي أصابتك.

ـ وما يهمني؟ أليست النزوة مع عطلها عن الأسباب سببًا في حد ذاتها؟ وللنزوات أحيانًا أسباب نتجاهلها. قل لي ألم تكن تحب صاحبتك؟

ـ لست أدري. وإنما كل الذي أدريه أني كنت أكون سعيداً بجانبها، وأن نظراتها كانت تسحرني، وأن بسماتها كانت تضيء ظلمات وجداني.

ـ ولمَ لمْ تصل حياتك بحياتها؟ ألم يكن هذا يكفي؟

ـ كان ينقصني أن أعلم اليقين أنها تريدني إرادة قوية جارفة تطغى في نفسها على كل ما عداها.

ـ إنها تريدك. وإلا فما الذي دعاها أن تبقى على علاقتها معك؟

ـ هيه، كثيرات يبعن أنفسهن أو يعرضنها سلعة يتقاضين في مقابلها خبزاً. ويا ما أرخصه من ثمن!

أنت تشك إذن؟

ـ وأريد أن يمحى الشك بأن أراها تهزأ بكل شيء وتستبيح كل شيء في سبيل أن تبقى على أنا.

ـ أية أنانية! وماذا يغريها بهذا؟

ـ وماذا يضيرها؟

ـ ماذا يضيرها؟ إنها فتاة. ومن حقها أن تشك وأن تظن أنك تريد أن تلهو بها وأن تلعب.

ـ إذن أنفض يدي منها!

ـ وتبقى هكذا فارغ القلب دائما؟

ـ ذلك أجدى من أن املأه عاطفة قد تكون مسمومة فتقتله... وقلب فارغ خير من لا قلب!

وعاد إلى نفسه أو عادت إليه، فخفف كثيراً من ثورته على فتاته وعزم على أن يجيبها إلى ما طلبت، وأن يتخلى عنها في رفق، وأن تكون هكذا نهايته معها.

ومرت سنتان . . .

وذات ليلة بينما كان يقفل نافذته لينام ، راعَه السكون المخيم على الطريق ، وما هي إلا لحظة حتى خرقت حُجب الصمت دقات ساعة في منزل قريب . . . تن . تن ، حتى أكملت إحدى عشرة دقة وهو في مكانه ذاهل واجم . وإن صوت الجرس في الظلام والسكون ليدخل على النفس شيئًا كثيراً من الرهبة والكآبة ، وهكذا أنسته هذه الدقات برنينها المكتوم نفسه لحظة أو بضع لحظات فوقف في مكانه يفكر على هذا النحو .

هذه الساعة ألقت بحلقات من سلسلة الزمن إلى ظلام الماضي وعمقه ، وهذا هو مبعث الكآبة التي تدخلها على النفس دقاتها في السكون والظلام .

أهكذا تمر الساعات والأيام؟ هذا عام ثان يكاد ينتهي ولما تعد فتاتي ، ترى ماذا صنع الله بها؟ إنيً لأتمثلها الآن وهي تهبط الدَرَج لآخر مرة في خطوات غير متزنة . إنها لم ترفع عينيها . أترى لم تكن تفكر في (الطلوع) مرة أخرى؟

أم أن القدر الأعمى لم يكن أنبأها ، وإنما سارت واضعةً ذراعها تحت ذراعه إلى حيث لم تكن تدري؟

من كان يدري؟ . . حين ألقت بها المصادفة في طريقي ، شعرت أني وجدت فيها الإجابة على نداء نفسي الذي كانت تهتف به منذ فجر الشباب . لقد وجدت فيها ريًا أطفأ ذلك الهيام إلى المجهول الذي كان يجعل العالم أمامي كوادي التيه أسير فيه على غير هدىً .

وغابت عني فعدت إلى عالمي القديم صَفر اليدين إلا من ميت الآمال!

ومرت سنون ثلاث . . وذات يوم كان (حقي) يسير في شارع فؤاد فلمح اسم صديقه إبراهيم . . . المحامي ، على لوحته النحاسية ـ بين لوحات أخرى تحمل أسماء كثيرين أغلبهم أطباء ـ معلقة على باب العمارة ، وفجأة خطر له أن يزور هذا الصديق في مكتبه .

ولم يكد يتخطى الباب الكبير حتى وجد فتاته . . . ليلى! نعم هي كما كانت دائمًا . . . وجَدَها واقفةً تتسلى بقراءة البطاقات الموضوعة على صناديق البريد في مدخل العمارة، وكأنما كانت تنتظر أحداً.

والتقت نظراتهما، وحَارَ فيما هو فاعل، ولكنه لم يدر إلا وقد تقدم إليها وهو يقول:

ليلى ـ! لمَ لمْ تأت يوم الثلاثاء الماضي؟ كنت مريضة؟ هذا هو عذرك الدائم.

وكان يوم الثلاثاء الذي يعنيه قد مرت عليه سنون خمسة! ولكنه حين أخذ يدها بين يديه يشد عليها نسى أنه لم يرها طوال هذه المدة وهكذا شعرت هي الأخرى، وكأنما هذه السنين قضياها كأهل الكهف نيامًا!

وأغمضت عينيها وكأنما أرادت أن تكر بالذاكرة إلى هذا الماضي البعيد وقالت وهي تبتسم:

ـ كلا لم أكن مريضة ولكن حدث أن أمي خرجت معي ولم يكن في إمكاني أن أستصحبها في زياراتي لك. قال:

ـ حاجاتك لا تزال في درج مكتبي. كنت انتظر دائمًا دقات الجرس الخمس، فأذهب لأقابلك بها على الباب.

لقد اشتريتها إذن! لم أكن أحسب أنك تعتقد أني كنت جادة فيما طلبت. . . هي صديقتي التي أغرتني. . . تجربة لعاطفتك نحوي. ولكني أخطأت في السماع إليها، وخفت إن أنا عدت إليك أن تعتقد أني إنما أعود لأسألك ما طلبت.

ودارت الدنيا أمام عينيه، وقال لنفسه (ما أكثر ما يخطئ الإنسان التقدير!).

وفجأة رآها تتركه ـ وقد عَراه ارتباك ظاهر ـ وتنظر إلى الباب حيث وقفت عربة، نزل منها شاب ناداها باسمها فهزت رأسها تجيبه، ودارت بنظرها إلى يمين المدخل منادية يا حقي!

وأصابته رجفة إذ سمعها تلفظ اسمه، ولكنها كانت تنادي طفلا ـ في نحو الرابعة من عمره ـ لم يكن ألقي بباله إليه. وأجابها الطفل متسائل ـ ماما؟

فمدت يدها إلى الطفل ورفعت نظرها إلى الفتى كأنما تسأله أن كان قد فهم شيئاً. وركبت الفتاة والشاب والطفل العربة، وانطلقت بهم ووقف (حقي) يتبعها بنظره ويصغي لوقع أقدام جيادها على الأرض، ويسمعه دون كل ما عداه من ضجة الطريق الصاخبة، حتى لم يبق منه غير صدى يرن في الأذن رنينا.

وحينئذ أحس كأنما بدأت الأرض تميد. . .

ألف ليلة. . .

كلما تعبت الإنسانية أو جثمت على صدرها الهموم والآلام، لجأت إليك يا ألف ليلة الحبيب تخدر بك أعصابها المنهوكة، وتحسو من نهر أحلامك تلك الجرعة السحرية العجيبة، فتستسلم للأحلام. . .

أنت أيها الأغنية الخالدة التي تترقرق في أرواح المحزونين ما أبدع شاديك وما أملأ بالفتنة ناديك!

لله حورياتك التي تثب كالقطا نحو أبواب الشرق بعد إذ فتحت أكمام الورد، وغسلت بالندى أحداق النرجس، ووسوست في صدر العرائس، وأيقظت الحياة في القرية الحالمة، وداعبت كل أم بالأماني، وجمشت[1] الديكة فأطلقت حناجرها للريح تتأذن للشمس أن تشرق، وللبدر أن يغيب، وللأنجم الظالمة أن تغرق في فيض الضوء الذي يفتر عنه فم الصباح!

---

[1] الجَمْش: الصَّوتُ

لله عذاراك يا ألف ليلة الحبيب! إن في عيونهن كحل الشرق، وفي وجوههن صباحته التي لا تعرف الدمام! إنهن يسبحن فوق السحاب الموشى بأجنحة من ذهب لا ثقل له. . . لأنه ذهب مما تصب سبائكه أخيلة الشعراء والحالمين والظامئين، تلك الأخيلة التي تصنع الطوبى، وتنبت الجنان، وترسل الألحان الصامتة، وتنحت التماثيل الحية، وتفرش أديم الأرض الطيبة بأوراق الورد والبنفسج، وتفجر فيها أنهار المعرفة، وتعطر نسيمها بعبق الزنبق، وتملأ أرجائها بألسن الموسيقا، وتبنى فيها القصور للعشاق والمحبين من البلور واللؤلؤ المنثور. . .

أملأ كأسك السحرية يا ألف ليلة الحبيب لتشرب الإنسانية المتعبة نخب أحلامك. . . إنها تود أن تنام فلا تصحو. . . إن الأشباح الكريهة الشائهة قد ملأت عليها عالم الحقيقة، وهجمت عليها فجأةً من الغابة المظلمة الفاحمة أفاعي الأحقاد. . . ها هي ذي الضباع الجائعة التي أصابها السعار تنوشها من كل فج، وتتلقفها في كل مكان. . . في البحر. . . في الهواء. . . تحت الماء. . . في

المخابئ. . . في الخنادق. . . في البروج المشيدة. . . في البيداء. . . في القرية. . . في المدينة. . في كل مكان يا ألف ليلة الحبيب تجد الإنسانية الأشباح ذات الظفر والناب. . . أشباح السباع والضباع وعفاريت الجن والسُّحراء والأفاعي والرُّخاخ[1] الهائلة التي تحمل فراخها الفيلة، والتنانين الطائرة التي تنزع الأشجار وتحطم المدن وتجعل العامر يباباً داثرا.

لشد ما تفزع الإنسانية يا ألف ليلة الحبيب بهذه الرؤى التي زحمت حولها عالم الحقيقة، فهبها كأسك السحرية مترعة لترسل بها إلى وادي أحلامك. . . وادي البدور والحور والعطور والبخور. . . وادي الأشجار والأزهار والأثمار والأطيار. . . الوادي الجميل الذي لا لغوب فيه ولا كروب ولا حروب. . . الوادي الأخضر السُّندسي الذي يستطيع كل شيء فيه أن يبتسم وأن يغني وأن يتكلم بلغة الموسيقا. . . لأن كل شيء فيه يستطيع أن يحب. . .

---

[1] الرُّخُّ: دابّة عَظيمة تَحمِل الفِيلَ على قَرْنِها

الوادي الذي تبتسم شطئانه، وتبغم[1] غزلانه، وتغازل الأرواح ألوانه، وتلج الصدور ريعانه. . . نضر ريان، حلو فينان؛ حينما تدخله الإنسانية الباكية تطرح أشجانها، وتنسى عند بابه أحزانها، فتمشي فيه بقدميها الورديتين، اللتين أرهقهما المشي في تلك الطريق الجافة الجافية المضرجة بالدماء، تبكي أطفالها، وتضحك من رجالها. . . ولا من يرثي لحالها.

حينما يداعب الحب قلوب العشاق، لا يقنع إلا أن يترك فيها ندوباً يجري منها الدم. فتارة يلون هذا الدم خدود العذارى وثغورهن، إن كن رقيقات رحيمات. . . أما إن كن قاسيات عاتيات، لا قلوب لهن، فإنهن يتركن الدم الشهيد المسكين يسقط ليروي الأرض. وقد يمشين فيه ويتلاعبن فيه حتى يخضب أقدامهن وبنانهن، فيخيل للمخدوعين أنها وردية.

ومن حسانك يا ألف ليلة الحبيب من يملأن دنياك مباهج ومسرة. إنهن أرأف بالمدنفين من النسيم الغزل بالزهرة

(1) بُغامُ الظبية: صوتُها

الظامئة؛ حين يبل صداها بالرذاذ النحيل الذي تحمله أجنحته ذات الزغب فيطبعه كالقبل فوق أوراقها التي ترتعش.

أولئك المحصنات المحسنات المحسَنات يا ألف ليلة، اللائي يمهدون للإنسانية طريق الخير، ويبثن فيها الورود والرياحين وأفواف[1] الزهر.

ومن حسانك يا ألف ليلة من يشببن حرب الحياة جذعة. هن جميلات ذاك الجمال الفائز المتأجج الذي كل من مسه يحترق وجميع من دخل تيهه يضل، ولا بد لمن يضرب في بيدائه من التعاويذ والطلسمات والرقي. . . تلك البيداء المسبعة المحواة[2] التي تعزف جنباتها الجن، وتفح الأفاعي، وتعربد الغيلان والسعالي. . .

الجمال الخطر المتبرج الذي صنعته يد الشيطان، وباركه إبليس الأكبر، فقصر من ذيله، وحسر عن ساقه، وأرسل

(1) رَقيقٌ

(2) أرض محواة كثيرة الحيّات

شعره كالزوابع الهوج تعصف بالقلوب الرطبة، وتزيغ العيون الجائعة، وتحرق العواطف المحرومة. ثم جعله سائباً طليقاً في الطرقات ليهدم ما تبنيه الآداب والأديان والمدارس وليثير غرائز الحيوان فيعود بالإنسانية إلى الغابة.

هات يا ألف ليلة الحبيب من جرعتك السحرية فقد طال الانتظار بمعروف المسكين الإسكاف!

لقد ضاق بالشدتين: صنعته وزوجه، فابعث إليه بهذا العفريت من الجن يحمله إلى بلاد الصين، حيث يتزوج من ابنة الملك! وحيث يحمل علاء الدين مصباحك السحري إلى أمه فيرد بأساءها رخاءً، ومتربتها هناء وفقرها غني. . . ويطلب إليها أن تخطب عليه ابنة الملك! بالضبط كما تتهيأ الفرصة لمعروف الإسكافي. ولكل بائس محروم يفكر في الناحية الأخرى المقابلة، حيث الفرج والسخاء والرضا، حيث طاقية الإخفاء وخاتم الملك والعصا السحرية ومصباح علاء الدين، حيث الأرض الطيبة، وجنة الأحلام، والطوبى السعيدة الخالية من الآلام.

ألا ما أحوج الإنسانية إلى طاقيتك اليوم يا ألف ليلة الحبيب!

ما أبدع أن تلبسها لتستخفي من الطائرات والغواصات والطرابيد ومدافع الهاون ومدافع الميدان والمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية وقنابل الثمانية آلاف رطل!

إنك إن تفضلت بها اليوم فحملتها على رأسها الذي يضطرب داخله ذلك البركان الأحمق، فإنك تريحها من أبنائها الحمقى، وأطفالها السكارى العرابيد!

إنها تستطيع إذن أن تتخلص من مارس المتوحش الدموي وعماله المتوحشين الدمويين، ومن تلك المجزرة المجنونة التي صنعت في معمل الأبالسة، وأُعدت في جب الشياطين! اخلع عليها تلك الطاقية يا ألف ليلة وليلة لتصل إلى خزائن الأسرار الحربية، فتريحنا من اختراعات الأبالسة، ولتضع مكانها أشباح تيمورلنك وجنكيز خان وهولاكو وأتالاكي تصيح في أوجه الجبارين: (مكانكم، ما هذا الدمار وما ذاك التخريب؟ لقد دمرنا من قبل، وخربنا من

قبل، وحرقنا المدائن والقرى. . . ثم دمرنا الزمان وأحرقنا التاريخ، فلم نك شيئاً)

اخلع عليها طاقيتك يا ألف ليلة الرحيم لتصل إلى خزائن البخلاء والمنهومين ومختزني الأرزاق والأقوات، أولئك الذين تركوها تتضور جوعاً وترتعد عرياً، . . . وتذوب من الاستحياء والتعفف لا لشيء. . . إلا لتمتلئ بطونهم بنار الذهب الوهاج. . . ليقتنوا الدور ويشيدوا القصور. . . وليضاعفوا بعد من آلامها. . . تلك الآلام التي يشربونها في كؤوسهم خمراً لذة، وسلافة مزة، وشراباً لا بارداً ولا طهوراً!

لقد طال بكاء معروف ومسغبته يا ألف ليلة، فامنحه طاقيتك ليستخفي بها قليلاً من عصا زوجه وثقلها. . . فما جنى شيئاً؛ ولكن جنت عليه تلك الحرب التي لم يشعل نارها وهو يصلى بأوارها.

أين الخاتم يا ألف ليلة؟ خاتم الملك العجيب الذي يملك الدنيا من ملكه؟ أين خادمه الجبار لينقل الإنسانية إلى كوكب غير هذا. . . كوكب بعيد قصي. . . كوكب غير قريب

من المريخ فلا يراها مارس وأعوانه المردة الذين لا ري لهم إلا من دماء الأبرياء، ولا شبع إلا. . . بأكباد الأمهات والأيامى والمساكين وقلوب اليتامى والحزانى.

أين خبأت هذا الخاتم يا ألف ليلة؟ لماذا تبخل به علي إصبع الإنسانية المرفوع إلى السماء، والدم يقطر من بنانها؟ من به عليها لتكتم أنفاس المدافع، ولتوزع على الجائعين أرغفة بدل هذه القنابل والمنشورات التي تلقيها عليهم الطائرات؟

لقد ضلت الإنسانية سبيلها في تلك المفازة، فألق إليهم بالخاتم يا ألف ليلة. . . ولقد اشتد الظلام الذي تضرب فيه على غير هدىً؛ فأشعل لها مصباح علاء الدين لحظات حتى تتبين سبيل الرشد، وحتى تفيء إلى الحق، وحتى تعود لها نعمة الحياة التي يعدها المردة من سخافات الماضي. . .

(لماذا هذا الحديث الطويل عن الدم والآلام والحلبة؟

أليس في الدنيا ركن أختبئ فيه بهذا الناي الذي في يميني، وذاك القرطاس الذي في شمالي، حيث أخلو إلى أناشيدي التي أملأ بها أسماع الرياح وآذان الآرام؟

لماذا يعوزني التحدث إلى الإنسانية ذات الأسمال[1]، وها هو ذا الورد يصغي إلى ألحاني، ويعطر الحديقة الضاحكة بعبير بياني؟).

هكذا وقفت شهر زادك تسأل نفسها يا ألف ليلة:

(سأمشي على ثبج هذا البحر بقدمي الجميلتين، فنهرع إلى جنياته وعرائسه. . وسأسبح على رؤوس الآكام في الهواء فتثب إلى بنات الغاب وعذارى الخمائل. . . ثم أسبح فوق السحاب. . . في صميم الأثير، فتقبل إلى ملكات العلالي . . أما جنيات البحر وعرائسه فتقبل قدمي وتتلقى أوامري. . . فوجمالي ومفاتني لا يأذن لغواصة أن تلج فيه ولا لبارجة أو ملقية طوربيد أو نحوها. . . ولتمخر فيه الجواري المنشئات كدأبها من قديم آمنات مطمئنات.

وأما بنات الغاب وعذارى (الخمائل) فتقبل بناني، ثم لا يأذن لمدفع أو دبابة أن يشوه جمال دنياي الخالدة. . . لن تصعد الآهات المكروبة من خرائب المدن الباكية بعد اليوم. . . ولن تكون هناك أطلال تذكر بتلك المجزرة المجنونة.

---

[1] السَّمَلُ: الخَلَق من الثياب.

وأما ملكات العلالي فتقبل يدي، وتنثر على الأرض المتعبة لآلئ الحكمة، وتنشر في الهواء لواء السلام، وترد إليها المحبة والإخاء).

ما أجمل ما تغني شهر زاد يا ألف ليلة الحبيب؟!

شهر زاد! روايتك الخالدة! مخترعة الطاقية والخاتم ومصباح علاء الدين والعصا السحرية. . . مسخرة الجن، وصانعة التعاويذ والطلسمات والرقى

شهر زاد! حلم الإنسانية الجميل!

متى تصحو شهر زاد يا ألف ليلة الحبيب؟!

ولدتُ في أعماق المحيط الهندي، وكنت أقيم هادئة مطمئنة في مقصورتي الصدفية، إلا أنني سئمت الحياة التي كنت أقضيها على نمط واحد، واشتقت إلى مشاهدة العالم الآخر القائم فوق سطح الماء الذي طالما حدثتنا عنة الأسماك في دهش وإعجاب، ولكن أخواتي من اللؤلؤ أشرن عليّ بالصبر، زاعمات أن الإنسان سوف ينزل إلى الأعماق لينتزعني من خلوتي، لأننا معشر اللؤلؤ ـ على زعمهن ـ ذوات قيمه نادرة عنده، وقد صدقن في زعمهن، إذ نزل إليها ذات يوم زنجي ليأخذني من صدفتي، إلا أن الحوت افترس المسكين، ثم حاول زنجي آخر بعد ذلك بقليل أن يفعل فعله سابقه، ولكنه لم يدركني، إذ كنت في عمق سحيق فمات مختنقاً. . بعد هذين الحادثين لم يبق لدى شك في قيمتي بعد هذين الحدثين لم يبق لدى شك في قيمتي عند الإنسان، وأنا خاملة الذكر في البحر، لذلك ازداد شوقي إلى المشاهدة هذا العالم. . . ثم أتى زنجي ثالث

مجدود استطاع أن يرفعني إلى سطح الماء، وهذا سلمني إلى رجل أبيض أخذ ينظر إلى في شره بعد أن انزع عني بسكينة الحاد صدفتي المسكينة!

وأراد زنجي رابع أن يسرقني من الرجل الأبيض، ولكن الأبيض داهمه أثناء السرقة فضربه بالسوط ضرباً مبرحاً مزق جلدة وأسال دمه. . يالخيبة أملي لو كان هذا هو كل ما يشاهد في دنيا الإنسان!.

سافرت بعد ذلك إلى لندن على متن باخرة فخمه. . وهناك قامت فتاة حسناء بصقلي في دقه وأناة. . وبعد أن أنهت من عملها رفعتني بإصبعها، وأخذت تتأملي طويلا ثم تنهدت من الأعماق. فخشيت عليها أن تفعل فعله الزنجي السارق، لأن جلدها ناعم لا يتحمل السوط. أما أنا فكان بودي أن أتعلق بجيدها البلوري أو أعلق بيدها الناعمة. . .

ثم أخذني جوهري فعرضني في زجاج دكانه. . وكان المارة ينظرون إليّ في إعجاب وفضول، وذلك ما أدخل على نفسي الزهو. . والواقع أنني كنت جميلة حقاً بلوني الوردي

الذابل، ولا سيما بعد عملية الصقل التي قامت بها تلك الفتاة الحسناء. وقد لاحظت أن أهالي لندن فضوليون إلى حد بعيد، وقد يصح مثل هذا الفضول من جانبي أنا مثلاً إذ قضيت حياتي سجينة في صدفة. . أما من جانب الإنجليز فهو أمر مستغرب، وهم قوم رُحل أفاقون. . وكان صاحبي الجوهري في الغالب يهودياً، لأن أنفه كان مقوساً، ثم إنه كلما وضعني في يده المجعدة، ضغط علي في قسوة وشره حتى كنت أخشى على نفسي الهلاك. وقد باعني ذات يوم إلى سيدة متقدمة في السن بربح وافر على ما أظن، لأنه جعل يفرك يديه طويلاً عقب إتمام الصفقة، وكانت نية هذه السيدة أن تصنع مني خاتماً. إلا أن ولدها وهو طفل (عفريت) في السابعة من عمره ابتلعني ظنا منه أني قطعة من الحلوى. فغشي على السيدة من الحزن، أكان ذلك من أجل ولدها أم من أجلي؟ لا أعلم، ولكني أرجح الثانية على الأخص بعد حادث الزنجيين اللذين ماتا في سبيلي. . .

وقد تناول الطفل مسهلاً قوياً أعادني إلى الحياة والنور. . . ثم انتقلت إلى يد أخرى كلها مرتعشة مجعدة. .

رب! كيف نظم هذا الوجود؟ كيف يكون الجاه والغنى عند العجائز والدميمات فقط؟

ولكن من حسن حظي وقعت في النهاية في يد فتاة أمريكية حسناء مثرية جدا، أعطيت لها في شكل خاتم قدمه شاب خاطب، وكانت الفتاة سعيدة بي. . فكم من رحلات شيقة قمنا بها ـ نحن الثلاثة ـ على متن طيارتها الخاصة، إلا أنه اتضح للفتاة يوما أن هذا الشاب يخونها، وأنه لم يخطبها إلا طمعا منه في ثروتها، لذلك ثار ثائرها: فألقت بي في وجهه، وكان ذلك أمام الباب الخارجي للدار الواسعة، فتدحرجت حيث اختبأت في حفرة مظلمة بالحديقة أنتظر من ينقذني، وأرجو أن يكون ذلك على يد فتاة جميلة.

الزهرية العاطلة

لا أجد هنا من يضع لي الزهر في غرفتي، وأنا الذي أحب الزهر قريباً مني، أضمه إلى صدري حنيناً، وأشمه لتسمو به روحي بعيداً، أحب العطر منه، وأحب العطف عليه.

ليس غيري إذن يضع الزهر لي في غرفتي، بل أختاره بنفسي وأرعاه وحدي.

واليوم اشتريت من الزهّارة الفتية الناضرة، باقة من ذلك الزهر الذي تحبه. . . . . (روحي).

لم تدر فتاة الزهر الجميلة لماذا سألتها السماح لي اليوم أن أنتقي بيدي أنا تلك الزهرات الحبيبة التي سأجعل منها وحدها دون غيرها، حديقتي في هذا اليوم.

سكتت فتاتي الحسناء راضية، وتَنحَّت هادئة، ونظرت إليَّ في سرور وابتسام وعجب! . ولِمَ تعجب؟ ومن عاشر الزهر لا يغضب.

لم ترني الفتاة قبل اليوم ألمس أزهارها بيدي، إنما أشير إليها بالطرف وهو كليل فتفهم مني قصدي، وتجمع لي زهراتي المختارة، تنتقيها من بين أخواتها برشاقة في حنو وعطف.

تبتسم الفتاة بسمات اللطف والرقة، وكأني بها تعلم سري عن الزهرات وهي تجمعها فتحدثها بها جهراً تقول: ما أحلاك أيتها الوردة الحمراء، المملوءة عطراً وعطفاً وشوقاً وحرارة! . . وأنت أيتها الزهرة الفاتنة مثال الرشاقة والخفة والحلاوة! وأنت يا حبيبة الفؤاد! تعالي تعالي يا زهرة الحب والإخلاص والحنان! أما أنت فيا للفتوة ويا للحياة! . وما أسعد الفتى بالفتاة؟ وأنت يا ربة الدلال والكمال. تقدمي! تقدمي! خذي مكانك هنا بين زميلاتك الرشيقات! .

هكذا كانت الزهرة تناجي وتنادي وتداعب هذه الزهرات النواعم، وهي تجمعها من هنا وهناك وتنسقها ثم تلفها في حرزها لتحميها، ثم تلتفت في رقة الفاتنات المائلات وتقول: تفضل يا حبيب الزهر فخذ زهراتك

المحبوبات، وبودي لو أطلعت عليك معها، أو لو علمت سرها معك!!. ثم تعود مسرعة إلى زهرها.

نعم أتيت اليوم بذلك الزهر الذي تحبه. . . (روحي)، وهي لا تعلم أنني جئت به!

ليس له اليوم شريك من زهرات أُخر.

هذا الزهر الذي تحبه (. . .) أشمه يوماً في كل عام، فيحييني طول العام!

وبعد. . فليس له عندي زهرية تصونه وتماشيه، ولا بد له من زهرية خاصة ترضيه وتحميه وتحييه.

ولكن هل أخشى هذه الزهرية ألا تحمل إليَّ هذا الزهر يوماً ما؟.

أم هل أخشى هذا الزهر ألا يكون في هذه الزهرية يوماً ما؟.

أم أخشى يوماً تحمل إلي فيه هذه الزهرية زهراً غيره؟.

نعم. قد يأتي هذا اليوم الذي أخشاه، وقد أرى بعيداً عني هذا الزهر الذي تحبه (. . .) والذي أحب أن أرعاه.

ولكني لا أخشى أن تكون الزهرية يوماً عاطلة!

ألم تحمل لي هذا الزهر يوماً من الأيام؟

وهل هذا اليوم ينسى مع الأيام؟

أني لأرجو أن تبقى الزهرية بعد اليوم عاطلة على الدوام، فهي عاطلة أحب إليّ منها خالية بعد هذا اليوم الذي أخشاه ستظل كنفسي التي تحمل دوماً ذكريات كنَّ في يوم من الأيام. . . . حقيقة موجودة. وواقعة مشهودة. .

(سنشيتا) الأسبانية . . حسناء تبيع برتقالا على عربة، يعاونها في عملها (بدرو)، وليس هو البطل الآخر للقصة وإنما هو شقيقها، وهو صبي لم يعد العاشرة، أما البطل الحقيقي فهو الشاب (خوان) خاطب (سنشيتا)، وهو صياد بارع يضارع في قوته (نبتون) إله البحر، ولكنه جميل الوجه.

أما أقارب (سنشيتا) فلم يعش منهم غير (بدرو) وغير الأم التي تقوم على إدارة المنزل. وكانت (سنشيتا) في آخر النهار إذا ما فرغت من البيع تدفع العربة أمامها في طريق الدار، يعاونها في ذلك (بدرو) و (خوان). وكانت هذه المهمة تستغرق وقتًا طويلا على قرب البيت، لأن ذلك الطريق القصير كان يقطع في مغازلة مستمرة بين الخطيبين، فتارة يقارن (خوان) ما بين البرتقال وخد الفتاة في الحمرة والنضرة، وطوراً تكون ابتسامة رقيقة ذات معان تبعثها (سنشيتا) إلى (خوان). . ومرة ثالثة، ملاحظة وقحة من

(بدرو) الصبي على أعمال العشيقين، تثير غضب الفتاة، ولو في الظاهر. .

وقد خطب (خوان) الفتاة منذ ثلاث سنين، والخطوبات الطويلة المدى من العادات المألوفة عند الأسبانيين. .

اتفق المحبان على الزواج لدى عودة (خوان) من رحلة يزمعها بعد أيام قلائل إلى بعض الجزر النائية حيث يكثر السمك، وكانت نية الفتى أن ينقطع عن عمله مدة بعد عودته من تلك الرحلة التي سوف تعود عليه بالربح الوفير، يقضيها إلى جانب زوجه المحبوبة في هناء وسعادة. .

أزف الرحيل وكان يومًا قاتما، كأن الطبيعة تشارك الخطيبين الحزن، وبكرت الفتاة في الذهاب برفقة شقيقها إلى المركب الشراعي الذي يبحر عليه خطيبها، وهو مركب قديم يندر وجوده الآن إلا في أشرطة السينما عن القرصان، وكانت الفتاة تحمل سفطا ممتلئا بالبرتقال أخذت توزعه على (خوان) ورفاقه، أقلع الشراع ولم تكن إلا هنيهة حتى غاب عن نظر (سنشيتا) الحاد. .

صارت الفتاة تتردد في غيبة خطيبها إلى غابة منعزلة كان يقصدانها أحيانا أيام العطلة، فتبث شكواها إلى أشجار الصنوبر، وتعيد على سمعها في صوت عال وسط هذه العزلة التامة، تلك الكلمات الرقيقة التي كانت تسمعها من (خوان)، وأحيانا ولا سيما في الليل كانت تخرج إلى الشاطئ لتشاهد الأنوار العديدة الخافتة المنبعثة على صفحة الماء من زوارق الصيد التي تروح وتغدو على مقربة. وفيما هي تعود إلى المنزل بعد جولة من تلك الجولات الليلية وجدت شقيقها (بدرو) جالسًا إلى المائدة يطالع في شغف كتابا مصورًا، فلما رآها التفت إليها قائلا: (سنشيتا يحسن ألا تتركي خطيبك يتنقل في البحار لأنهم يقولون أن حور البحر يخطفن البحارين الحسان!) فابتسمت الفتاة لهذا القول وقبلت أخاها قبلة طويلة في جبهته. وفي ذات يوم دقت الأجراس في القرية على غير عادة، فعجبت لذلك (سنشيتا) وكانت إذ ذاك في حجرتها منهمكة في ارتداء ثيابها لتخرج إلى السوق. رباه! لماذا تقرع الأجراس، وليس اليوم من أيام الأعياد؟ وإذا (بدرو) يدخل عليها الحجرة بغتة هاشا مسرورًا فينبئها

بالخبر العظيم.. بعودة (خوان)، وبأن هذه الأجراس إنما تقرع تحية له ولرفاقه الصيادين الذين عادوا من رحلتهم الطويلة.. خرجت الفتاة إلى الشاطئ وأراد (بدرو) أن يرافقها إليه، ولكن الأم احتجزته معها في المنزل ليساعدها في تنسيق مائدة الطعام إكراما للخطيب المحبوب..

بلغت الفتاة الشاطئ فوجدت السفن راسية والصيادين يعانقون أهليهم وذويهم، ولكن.. (خوان)!.. أين (خوان)؟ أين (خوان) الجميل؟ خوان لم يؤب فقد ابتلعته الأمواج في ليل عاصف، وهو في طريق العودة إلى الوطن. ثم دنا أحد الصيادين من (سنشيتا) قائلا: (انتظري سنشيتا سأعطيك نقود خطيبك التعس).. ولكن (سنشيتا) لم تنتظر بل قفلت راجعة إلى المنزل.. وعندما بلغت عتبة الدار وجدت شقيقها (بدرو) ينتظر متطلعا، ثم سألها في لهفة:.. (ولكن أين خطيبك؟) فأجابته في هدوء: (لقد احتفظت حور الماء بحارنا الجميل يا بدرو)!

جريمة . . .

ـ١ـ

في صباح يوم من تشرين الأول كان الضباب ضاربا بجرانه على شوارع (ليفربول) فلا تكاد العين أن تستبين السبيل إلا عن كثب . . والمصابيح لم تزل موقدة كأنما حسبت أن الضباب بقية من الليل ، وأن النهار لم يطلع بعد . . .

في تلك الساعة الباكرة أخذ الشطر العامل من أهل المدينة يتحرك ، وجعلت الأبواب تتثاءب ، فيخرج منها العمال أفواجا ، ينشدون عملهم ويجرون وراء خبزهم وزبدهم لأن العامل في مصر قد يقنع بالبحث عن الخبز ؛ أما هناك فلا بد له من الخبز والزبد .

هذه الحركة الباكرة في بعض أحياء المدينة قد تلاها سكون ؛ لأن الشطر الثاني من المدينة لم يستيقظ بعد . . وكأنما كانت الحركة الأولى بمثابة الفجر الكاذب ، أضاء

لحظة ، ثم ساد من بعده الظلام ـ ولكن سرعان ما انقضت ساعة الهدوء هذه ، وأخذ ذلك الغطاء الكثيف من الضباب يرق شيئا فشيئاً . وبدا في أقصى الشرق على الأفق شيء غامق مبهم يدعونه في تلك البلاد الشمس . . ولقد تستطيع العين المصرية ـ بشيء كثير من المران ـ أن ترى فيه من الشمس شبها ، وأن له بها صلة .

وبعد لأي ، تثاءبت الأبواب في الأحياء الوسطى ، وخرجت منها أفواج من الحضريين (البورجوا) الذين يشتغلون في دور التجارة . فيعملون بها ساعات قلائل ، ولكن أجرهم أعلى ، ومقامهم في المجتمع أسمى . وهم أيضا ينشدون الخبز والزبد . ولكنهما من صنف أرقى وأرفه من خبز العمال وزبدتهم .

وهكذا تحركت في المدينة أحياؤها السفلى والوسطى ، ولم يبق مغموساً في عسل الرقاد سوى أحياء (العاطلين) ، الذين يعيشون من أموال تأتيهم من وراء البحار : من الهند ومن أستراليا ومن سائر أنحاء الدولة التي لا تغرب الشمس

عليها . . هؤلاء لا يتحدثون عن خبز ولا زبد ، بل يأتيهما الخبز والزبد طائعين يجرران الذيول . . .

وليس يعنينا اليوم من أمر هؤلاء شيء ، وإنما تعنينا الآن تلك الأحياء الوسطى التي لم يكد أبناؤها وبناتها يخرجون كل إلى عمله ، حتى فتحت الأبواب مرة أخرى ، وخرجت من كل باب امرأة نصف في ثياب رثة زرية ، وهي تحمل في يمينها خرقة بالية ، وفي يسارها سطلاً فيه ماء دافئ .

هؤلاء النساء لسن بخادمات كما قد يتبادر إلى الخاطر العجل ، بل إن كلا منهن ربة دار ، وصاحبة الأمر والنهي فيها . وهي تنتظر ريثما يخرج من بالدار من بنين وبنات ، ثم تأخذ في الجد والعمل ، من غسل وطهي وخبز وعجن ، ولا تكاد تهدأ ساعة من الصباح إلى المساء ، بادئة عملها حيث يجب أن تبدأه : من عتبة الدار ودهليز البيت . . . ولقد تجد الواحدة منهن في غسل العتبة لذةً خاصة ، ولعل أحب الأعمال جميعاً إليها . . لأنه يتيح لها فرصة قد تكون الوحيدة في كل يوم لأن تتحدث إلى جارتها ، وتقص عليها من كل شيء ، بل ومن عدة أشياء أخرى . . .

وفي هذا اليوم من تشرين الأول خرجت السيدة نلسن من المنزل رقم ١٥ في ساعة باكرة ، وأخذت تمسح عتبتها في شيء كثير من النشاط ، لكنه كان نشاطا يشوبه القلق والاضطراب ، وكانت من آن لآن تنظر إلى منزل جارتها السيدة هرفي صاحبة المنزل رقم ١٧ ، وكأنها تود بفارغ الصبر لو خرجت هذه السيدة لمسح عتبتها ، كي تحدثها في الأمر الذي أهمها وأزعجها ؛ والذي كانت ترتعد من أجله الخرقة التي بيمينها . والسيدة هرفي هذه أرملة ورثت عن زوجها منزلا يفضل عن حاجتها وحاجة أسرتها ، فكانت تسعى في تأجير شطر منه لقاء مال يسير تستعين به على تكاليف الحياة . ولم تكن جارتها ترى في هذا بأساً ، ما دام نزلاؤها رجالا ذوي فضل . لكنها لاحظت بالأمس من خلال النافذة رجلا أسود الوجه خارجاً من المنزل رقم ١٧ ؛ فما شكت في أنه النزيل الجديد ، الذي تريد السيدة هرفي أن تؤويه في دارها . . . . يا عجباً لهذه المرأة التي لا تتورع من الخروج على كل عرف ، وانتهاك كل حرمة . والنزول بهذا الحي الراقي ، وهذا الشارع الطاهر ، إلى الدرك الأسفل . .

ماذا يكون مصير هذا الحي يوم يرى سكانه هذا الأسود رائحاً غادياً، بوجه المزعج وسحنته المنقلبة؟ . . إن العاقبة ستكون من غير شك وخيمة والمصير أليما. فلن يلبث سادة الحي وأشرافه حتى يهجروه وينأوا عنه؛ لكي لا تقذى أبصارهم برؤية هذا الوجه الكريه. . . إن وجها واحداً من هذه الوجوه السود لكفيل بأن يلوث حياً بأسره، وأن ينغص على أهله صفاء الحياة وطيب الرقاد. . . . والويل لفتيات الحي إن صادفن هذا الوجه المنحوس في ليلة حالكة الظلام، عند أوبتهن من المرقص والمسرح: إن الرعب الذي يستحوذ عليهن في تلك اللحظة لخليق بأن يورثهن سقماً يلازمهن مدى الحياة. . . كلا. . إن السيدة هرفي ـ مهما كان حبها للمال ـ يجب أن تعلم أن مثل هذا الشيء لا يجوز. . . . ومن حسن الحظ أن الفتى لم يأت بأمتعته بعد. . . ولم يزل في الوقت متسع لمنع هذه الكارثة من أن تلم بهذا الحي الآمن المطمئن، ولئن كانت السيدة هرفي قد نسيت ما عليها من واجب تلقاء الحي وأهله، فأحرى بجارتها مسز نلسن أن

تريها الرشد من الغي، وأن تردها عما هي سائرة إليه من الوبال. . . . .

ولم يطل بها الانتظار، بل فتح باب المنزل رقم ١٧ وخرجت السيدة هرفي، وهي في نهاية العقد الخامس من العمر؛ وفي يمينها خرقة كبيرة وفي يسارها سطل كبير. ثم بدأت جارتها بالتحية.

ـ عمي صباحاً، مسز نلسن، عمي صباحاً.

ـ نعم صباحك، مسز هرفي.

ـ أن الهواء دافئ صحو، والشمس مشرقة في السماء. أرجو أن تكوني بخير.

ـ إنك خرجت اليوم متأخرة على غير عادتك.

أجل لقد كان لدي اليوم عمل كثير، وكان علي أن أعد الحجرة السفلى، والغرفة الأمامية من أجل ضيفنا الجديد فإنه سيأتي بأمتعته قبل الظهر بساعة وقد يبقى بالمنزل إلى وقت الغذاء.

أتعنين إذن أنك رضيت بذلك الزنجي الدموي نزيلا عندك؟

ـ هل أنبأك بأمره أحد؟

ـ رأيته أمس من خلال النافذة خارجاً من باب بيتك، ففتحت عيني من الدهشة، وأنا لا أكاد أصدق ما أراه. وخشيت أن تكوني قبلت أن تسكنيه بيتك. والآن قد صدقت أسوأ ظنوني فبالله يا صديقتي، إلا تدبرت الأمر قليلا، قبل أن تنزلي بهذا الحي الآمن هذه النكبة الفادحة.

ـ وأي نكبة في هذا؟ إن للفتى حجرته يجلس فيها، وغرفته ليرقد فيها، ولن يكون له سبيل إلى أحد من الحي، ولا لسكان الحي سبيل إليه. فهوني عليك فليس في الأمر ما يدعو لكل هذا الاهتمام. .

ـ اللهم لطفا. . ! إنك لا تبالين ـ إذا ظفرت بالمال الذي تبغين ـ أن يشقى الحي وأهله برؤية هذا الزنجي الكريه المنظر،

ـ إنه ليس بزنجي، بل هو مصري.

ـ وما الفرق بين هذا وذاك؟ أو ليسوا جميعا من أهل آسيا؟

ـ لست أدري أية آسيا تعنين. . . غير أني حادثت هذا الشاب، فرأيته يتكلم بلساننا كأحسن أبنائنا. ورأيت في حركاته وسكناته ما ينم عن حسن الأدب وكرم المحتد.

ذاك لعمري العسل الذي يخفي السم الزعاف. وكأنما نسيت ذلك الهندي الزنيم الذي كان نازلاً في بيت مسز براون. لكم كانت تكرمه الأم وتجله، وتسمح له أن يصحب ابنتها دورا إلى بيوت الرقص واللهو. فكان جزاؤها أن خان الأمانة وخفر الذمة، ثم اختفى من المدينة فلا يعرف له أحد مستقراً ولا مقاماً.

ـ ما أحسب الناس أشراراً كلهم، وفي أبنائنا البيض من يرتكب ما هو شر مما ارتكبه الهندي. وعدا هذا فإني ليست لي ابنة فأخاف عليها، وقد زوجت بناتي جميعاً، ولله الحمد.

ونحن؟ أما تحسبين لنا ولبناتنا حسابا؟ إنك من أجل بضعة الجنيهات التي سينقدك إياها لا تبالين بنا ولا بما قد يحل بنا ولا بالحي وما يدنسه ويحط من شأنه.

لكني قد وعدت هذا الشاب أن أسكنه الحجرة السفلى والغرفة الأمامية، ولا بد أن أبر بوعدي.

ـ يا لهذي السذاجة البديعة! كأنما يفهم هؤلاء السود ما الوعد وما الوفاء بالعهد! . . . ولقد كان ذلك بالهندي شديد الوفاء لدورا المسكينة يوم تركها في تلك الحال الأليمة، واعتصم بالفرار! . .

وفي هذه اللحظة خرجت الجارة الأخرى من المنزل رقم ١٩ وانضمت إلى جارتيها وانتقل الحوار من الحديقة إلى داخل المنزل وقد صحت نية الجارتين إلا تركا صاحبتهما حتى تذعن لرأيهما، وتنزل عند إرادتهما.

ـ ٢ ـ

في صباح ذلك اليوم من تشرين الأول استيقظ (حسن) من رقاد كان مملوءاً بالأحلام. . . وكانت أحلامه عن مصر وعمن بمصر، وعن منزله المطل على النيل، حيث خلف والدين آلمهما فراقه، وأحزنهما أن سيكون بينهما وبينه هذا البحر الفسيح وهذا البر العريض، وأن يهزهما

إليه الشوق، فلا يستطيعان إليه سبيلا، ويحترق الصدر وجداً وهيهات الشفاء. . . في هذه الليلة رأى حسن أخته في المنام، ولقد غادرها في مصر حليفة السقم. . أما اليوم فقد ابتسمت إليه حين رآها، وطلبت منه أن يعود إليها رجلا عظيماً. . . عجب كيف حالهم اليوم، وهل يختلف الجديدان عليهم بالسعادة أو النعيم، أم بالشدة والشقاء؟. . . وهل اعتادت الأم فراق الابن الوحيد، الذي لم يفترق عنها منذ أن رزقته بعد يأس، فكان قرة العين، وشفاء ما بالصدور. . .

وها هو ذا قد اضطر لأن ينزح عن داره، وأن ينزل هذه المدينة الداوية الصاخبة، وقد التحق بجامعتها، وأخذ يجد في طلب العلم ومضى عليه تحت هذه السماء الرمادية اللون أسبوعان، لم يكتسب فيهما صديقاً جديداً، ولم يحاول أحد أن يتعرف به أو يتقرب إليه. . . كان كذبا ما زعمه المتشدقون من أصحابه في مصر: أن الناس في هذه البلاد يقبلون على الغريب، ويجدون في إرضائه واكتساب صداقته. . لقد كان الناس يجيبون على سؤاله إذا سأل

بجواب هادئ قصير، لا يحمله على المضي في الحديث بل سرعان ما أشعر أن بينه وبينهم سوراً غليظًا وعراً، هيهات له أن يجتازه. ولم تطل به الحال حتى اعتاد أن يقابل البعد بالبعد والصد بالصد. . . وهكذا أمسى وأصبح وحيداً غريباً، وسط هذا المزدحم الزاخر من الناس.

واستيقظ في صباح هذا اليوم ونهض من فراشه في شيء من النشاط. . وكان ذاك آخر أيامه في هذا (البنسيون) الذي قضى فيه هذين الأسبوعين، وكان عليه اليوم أن يبادر بإعداد حقائبه وجمع ما تناثر من أمتعة. وكان مغتبطا ناعم البال، لأنه وفق أخيرا إلى هذا المسكن الجديد في المنزل رقم ١٧. . فمنذ اليوم سيكون له حجرتان: حجرة يجلس فيها ويطالع أسفارها ويتناول طعامه. والأخرى لنومه وراحته، ولقد كان من حسن الطالع أن غرفة نومه تطل على تلك الحديقة الغناء، فيستطيع أن يطالع من نافذته ابتسام الربيع وقهقهة الصيف، وهدوء الخريف ووجوم الشتاء. . . أما هذا البنسيون في (أكسفورد ستريت) فلم يكن له فيه سوى غرفة صغيرة، ولم تكن إقامته فيه إلا ريثما يتحول عنه. .

ومع هذا فإن صاحبته اليهودية لم يرضها منه أن يغادر البنسيون، فلم تكن تلقاه ـ منذ علمت قرب انتقاله ـ إلا عابسة غاضبة، فكان أنفها البارز المحدب ينتفض ويضطرب، وعيناها البراقتان يتطاير منهما الشرر، إذا طلب قليلا من الماء الساخن ليستعين به على حلق لحيته. . والويل له إن تخلف عن موعد الطعام قليلا: فانه كان يجد المائدة قد رفعت؛ فإذا نظر إلى ما حوله ألفى وجوهاً عابسة تنذره بالشر المستطير إن هو حدثته نفسه بالحصول على شيء من القوت الذي فاته. . فكان نؤثر الصمت وينسل إلى غرفته في سكون وهدوء.

إن هذا الاضطهاد العجيب كثيراً ما كان يضحكه؛ وكثيراً ما سأل نفسه أيمكن أن تقسو عليه هذه اليهودية كل هذه القسوة لا لسبب سوى أنه يؤثر أن يسكن في ظاهر المدينة حيث الهواء الطلق والسكون الشامل؟ إن أحد الناس أخبره فيما بعد أن هذه اليهودية لم تظلمه ولم تضطهده إلا لكي تثأر منه: لما جناه أجداده الفراعنة في الزمن القديم على بني إسرائيل، حيث كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون

نساءهم . . . وكثيراً ما أغرب حسن في الضحك كلما خطر له هذا الرأي الظريف . . .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذا اليوم من تشرين الأول هو آخر أيام الاضطهاد وأول أيام الحرية . فلن يطالبهم اليوم بالماء الساخن ؛ وإذا قدم إليه الشاي بارداً والبيض فاسداً في طعام الفطور ، فإنه لن ينبس بكلمة . . . ثم أخذ يعد أمتعته ويحزم حقائبه . وقبيل الظهر بساعة كان قد أعد العدة للرحيل . . .

ومشى على استحياء إلى ربة المنزل ، فحيته في تكلف وفتور . أما هو فابتسم لها ابتسامة ظنها ابتسامة الظفر ؛ وقدم لابنتها الصغيرة (سارة) صندوقاً جميلاً مفعماً بالحلوى ؛ ونفح الخادم بضعة شلنات أنطقتها بالشكر .

ثم انطلقت به السيارة وبأمتعته وحقائبه تلقاء ذلك المنزل ، رقم ١٧ المطل على الحديقة الغناء ؛ وصدره مملوء غبطة لم يحس مثلها منذ نزل على ضفاف (المرزي) وأخرج من جيبه مرآة صغيرة فأصلح الرباط الذي يحيط بعنقه ،

والذي تزعزع كثيراً أثناء نقله لحقائبه من الغرفة العليا إلى التاكس . . .

لم يكن حسن قبيح الصورة ، ولكنه من غير شك كان أسمر اللون . وقد أخذ يحس إحساساً مبهما إن هذه السمرة قد تكون من جملة الأسباب التي أغلقت دونه أبواب القلوب . . . لكنه كان بعد في شك من هذا الأمر . . . ولم يكن قد وقر في نفسه بعد وأصبح عقيدة راسخة . . . فكان في يومه هذا باسما مستبشرا .

ها هي ذي السيارة قد وقفت لدى لمنزل رقم ١٧ ! وقد أوشك أن يقلب صفحة جديدة من صفحات حياته . . . فلتنتظر السيارة قليلا ريثما ينزل ويستأذن أهل الدار في الدخول . . همّ يأخذ في دق الجرس . . . . عجبا ليس من مجيب . . . إن السيدة قد ذهبت ـ دون شك ـ إلى بعض شأنها وليس بالدار أحد . . . فلينتظر قليلا . . . ولكن . أي شيء هذا؟ . . إن النافذة تفتح وهذه مسز هرفي نفسها . ولكنها تنظر إليه بوجه عابس متجهم . . . إنها تبدي أسفها الشديد لأنها لا تستطيع أن تقبله في منزلها . . . . أجل . .

ولا يهمها أن تكون قد سبقت كلمة منها إليه . . إنها لا تقدر أن تؤوي لديها أحدا من أهل آسيا ، فليرجع بسلام . .

آسيا؟ ولكنه ليس من أهل آسيا . . . إنه من أهل مصر ! سيان لديها ، من أية الجهات مصدره ، مادام أهل الحي لا يروقهم شكله ومنظره . . فليرجع إلى أحد فنادق المدينة فإنهم سيرحبون به هناك . أما منزلها هذا فليس إليه سبيل . . .

ويطأطأ حسن رأسه ويمشي إلى سيارته مطرقاً واجماً . ويهمس في أذن السائق اسم أحد الفنادق ويرتمي في مقعده مجهدا متعبا . وتحين منه التفاته إلى يديه وبشرته السمراء ، فيدرك أن في العالم بعد جريمة هائلة دونها كل أثم وكل جرم ، وأنه ـ ويا للأسف ـ لا سبيل إلى الخلاص منها ، ولا إلى الابتعاد عنها . . .

الضحية . .

انحسر الليل عن جبين الفجر ، والفتى لا يزال في مجلسه يشهد ليلة تنطوي ، وفجراً يبزغ ؛ وكأن الليلة لم تكن في فكره إلاّ ساعة ، وكأنه وقد جلس يرقب سير الكواكب في أفلاكها كان ينتظر أن يقرأ فيها تتمة الرسالة التي قرأ أول كلمة منها أول الليل ، فوجد فيها ما وجد من لذة ونشوة وسحر .

لم ير في صفحة الكواكب السيارة ، ولا في العالم الهادئ النائم المطمئن ، إلاّ شيئاً كان في خياله هو وفي خواطره . جلس لا ليقرأ حظه في كتاب السماء ، ولكن ليؤلف كتاباً من نفسه الطروب المرحة . . . وذهب إلى عمله وهو نشاط يشتعل ؛ فهو يجيء ويذهب ، ويقرأ ويكتب ، ويتكلم فيبين ، وكأن شيئاً فيه قد خلقه من جديد ليكون شخصاً غير الذي يعرفه في نفسه ، ويكون إنساناً سوى ذلك الذي عرفه صحابته ورفاقه . ودخل إلى صديق يحدثه ، يريد أن يفضي إليه ببعض ما يفور في نفسه ، ولكنه

عاد فرأى أن ذلك الشيء الذي بعثه من جديد لم يكن إلاّ في نفسه لنفسه، فهو سره هو، وهو له وحده. . . ثم رجع إلى بيته ليطيل النظر إلى نفسه في المرآة يأمل أن تريه مرآته الشابّ الذي في قلبه، فلم ير إلاّ ما تريه المرآة كل يوم، ولكن هندسة عقله الجديدة قد بدت على هندامه وزيّه فكان جديداً حتى في هندامه وزيّه. أكلّ ذلك لأنه رآها أمس وجلس إليها وقال لها وقالت له. . . ؟

ومضى الفتى على طريقه، وفتاته أمامه تنير له ما أظلم، وتفتح له ما استغلق، وقلبه ماضٍ على أثرها، وهو من وراء الاثنين: قلبه وفتاته، طيّع منقاد.

وأبعد في السير، فباعد بين الفتى الجديد والفتى الذي كان، وعاد لا ينظر إلى الوراء إلاّ ليرى ذاك العريش الذي جلسا تحته لأول ما قال لها وقالت له. . . وكأن عمره قد أختُصِر في هذه الأشهر القليلة، ولكنه كان عمراً طويلاً.

وخيّل إلى الفتى حين اجتلى النور من وجه صاحبته، وحين حاطه الشعاع الآسر من روحها ومن عينيها، وحين رأى الأمل يترقرق على شفتيها من ابتسامة رقيقة، خُيّل إليه

حينذاك أنه عاش ما عاش من العمر أعمى لا يرى الحياة إلاّ مادة؛ أما الآن فهي عنده روح من الروح، وهي عنده شعاع يسطع في قلبه، فلا يزال يذكي روحه، ويرهف حسّه، ويشعره معنى الحياة الجميلة، ويحبّب إليه أن يعيش عَيْشَه مغموراً في هذا النور الإلهي الذي ولّده السالب والموجب من قلبها ومن قلبه.

وتلاقيا على ميعاد. ونظر ونظرت، فإذا عصفوران يتساقيان الهوى على فنن؛ فقال في نفسه: (ما أتعس الإنسان! يقيد نفسه بأغلال المادة والتقاليد، ثم يزعم أنه طليق. ليتنا مثل هذين. . . !) وقال لها وقالت له. وكان كلاماً لا تلفظه الشفاه: من ذا يفهم لغة الطير، أو يسمع نجوى العاشقين عيناً إلى عين؟ إن هذين الطائرين يفهمان من فلسفة الحياة أكثر مما استوعبت عقول البشر. إنهما يملكان الحرية، وفي أيدينا وأرجلنا قيود ذهبية. . . ! ومالت على زهرة نضرة من أزهار الحديقة تقطفها، ونظر الفتى فما بدت لعينيه زهرة بل رمزاً من شفة، وخد، وعطر، وخطوة دلال.

وأسرع إلى صاحبته: رويدك يا فتاتي، إن هذه الأنامل الجميلة ما خُلقت إلا لتتملّى هذا الجمال وترعاه!

ولما همّا ليفترقا لم يقل لها: يا فتاتي التي أحب. بل قال لها: يا من حبتني الخلود وأشعرتني لذة السعادة على الأرض.

ما أعجب ما يرى الإنسان في الحياة! وهل يرى كل ما فيها إلا على ما رُكِّبتْ عليه طبيعته المادية الجامدة؟ حتى إذا ما لمست فتاة قلبه حالت كل مادة على الأرض شيئاً إلهياً نورانياً، يتلألأ كما انفلق الإصباح عن ليل طويل دامس. وماذا في الشباب إن لم يكن هذا الشباب في القلب قبل أن يكون في نضرة الوجه وتكتُّل العضل؟ حتى الشيخ يرده الحب فتياً! تلك حكمة الله في الأرض.

سار الفتى على سننه؛ وذهبت نفسه وراء فتاته، وهي من عقلها لا تخمد العاطفة بالرضى الدائم، ولا تبعث في نفسه السأم بالغضب المستمر. وهو من كبريائه لا يندفع اندفاع الطيش، ولا يُقْصر إقصار الملل. نفسان عُقِّدَتا؛ ولكنهما عقدتا ليكون الحب فيهما عقدة ثالثة. فهي تفور،

وهو يتنزّى ولكنهما هما. أراد أن يكون صريحاً فتعقدت له، فلما أرادت أن تكون صريحة وجدته قد تعقد ضَلَّ من يقول إن العقل والكبرياء كلاهما يذهبان برونق الهوى، ويطفئان شعلة الحب. إنهما يجعلان من الهوى هوى مركباً لا ترقى إليه العقول الصغيرة، ومن الحب حباً معقداً لا تبلغه العاطفة السقيمة.

ثم انطلقا. . . والفتى سعيد بفتاته، والفتاة سعيدة بفتاها فما يفترقان إلا على ميعاد، وهما بين الميعادين كالظمآن يذكر آخر قطرة تذوقها ويرى فيها الحياة، وينتظر أول قطرة تأتيه ليرى منها النور.

على ضفة النهر، وبين الخمائل، وتحت ظلال الشجر، وفي ضياء البدر، في صمت الطبيعة وجمالها، طائران أغمض الدهر عنهما جفنيه ليرشفا من رحيق الحياة كأساً صافية، ما كدّرها تخاصم، ولا لوّثها عبث. عام انطوى، فكان العمر، وكان جمال العمر، والصفحة البيضاء في كتاب حياة الشاب والشابة. فما يكون جزاء هذا الحب إلا رباطاً لا

تنفصم عروته؟ وتلألأت الفكرة، وتضاعفت سعادة العاشقين بهذا الأمل الجديد.

والفتى والفتاة من أسرتين ترسفان من التقاليد في أغلال، وويل للحب إذا اعترضت سبيله التقاليد!

وكانت فكرة، ثم استحالت الفكرة فإذا هي كلام، وحَار الكلام فإذا هو خطوات إلى غاية، ولكن. . . ولكن ما أحوج هذا السالك إلى من يرود له الطريق! هؤلاء أهلها، ماذا يعرفون من أمره؟ وكيف يخطبها إليهم وما له عندهم اسم ولا رسم؟ وهؤلاء أهله، ماذا يعرفون من أمر فتاته، وما حاول من قبل مرة أن يفض لهم أغلاق قلبه أو يقرأ عليهم سطراً من شبابه؟ وهذا أبوه، شيخ لا يؤمن بالحب، ولا ينقاد لنزوات العاطفة؛ وهو رباه ونشأه واختار له فيما اختار فتاة من ذوي قرباه، فما ينتظر له زوجاً غيرها ولا لها زوجاً غيره. فمن ذا يشفع له عنده؟ وهذا عمه، وإنه لرجل جد وكفاح لا يرى الحياة إلا من الناحية الصلبة الجافة، فما إليه مشتكى، ولا فيه شفاعة! ولقد تلقى الفتى عنه ـ فيما تلقى ـ دروساً في الشجاعة والصراحة معاً، فكيف تخذله

شجاعته، وكيف يلتوي لسانه وهو يطلب الحياة لنفسه؟ وفي قلب الفتى نار لو لفحتْ الشجر الأخضر لتركته هشيماً، وفي رأسه شعلة لو نفخت على السائل لتركته يغلي ويفور. وابتدأ الفيلسوف الذي في رأسه يفرض الفروض، ويأتي بالمقدمات، ولكن إلى غير نتيجة لقد ملك اللذة وأراد أن ينعم بها، ولمس السعادة وأمل أن يحتويها، ولكن فكرتي اللذة والسعادة هما اللتان ذهبتا بشجاعته وصراحته.

ماذا في السعادة غير اطمئنان الخاطر، وهدوء الضمير، وإشراق الحياة، وابتهاج النفس، والرضى بكل ما يجيء به القدر؟ ذلك هو الإيمان، والشعور به هو اللذة. فلا تنشدهما من غير هذا السبيل.

ونفخ الحب في عزم الفتى، ونفث من سحره في لسانه، فمضى بين الرجاء واليأس ينفض أمام أبيه جملة حاله. وكان أبوه قد قدّر حين رأى في ابنه الذهول والصمت حيناً، والانكباب على المطالعة حيناً آخر، أن به شيئاً. وقالت له ذكريات شبابه: (ويحك أيها الشيخ! إن فتاة قد سلبتك فتاك، لأنه فقد النوع، وإنه لشاب به ثورة الفتاء ما بالرجل

يوقد تحته بنار من حجارة، فأمسك عليك ولدك بزوج تربطه بها وتربطها به. . . !) ووعى الشيخ ما سمع. فلما أذن للفتى أن يكشف لأبيه عن صدره، قال له: (يا بني! إن حكمة الشيوخ غير طيش الشباب. يا بني! إنه أنا الذي رباك وأنا الذي يريد أن يعيش في تأريخك جيلاً آخر. عقلك أولاً ثم عاطفتك، وغداً تهدأ هذه الثورة. . . !) ولكن الثورة لم تهدأ بل زادت ضراماً، وعاد الفتى إلى عمه يستعينه على رأي أبيه، فما الأخ إلا صورة من أخيه، ولما أرسل إلى أهلها قالوا: (حتى يرضى أهله).

وضاقت نفسي الفتى بما رأى وسمع، وما لبثت الفتاة أن سميت على غيره، فأصبح الفتى يتوزعه الحب وقد أخفق فيه وصفرت منه يداه، والكبرياء التي لا تطاوعه على أن ينقاد، فصار همه همين؛ وعض الحزن على قلبه فاستلبه من أيامه، وخلفه يمشي بين الناس جسداً بلا روح. !

وأحس الأب بمقدار قسوته على ولده، على حين لم يكن يريد له إلا السعادة، فأنطلق يلتمس له الشفاء من ألمه،

ولكن أين له ما يريد وقد سميت الفتاة على غيره فخطبت فـ. . . .

وكان الأب في انطلاقه يفتش عن السعادة لأبنه، قد ترك وراءه شبحاً يجلس إلى مدفئة في زاوية من الحجرة وقد نشر أمامه ورقة لا يكاد يتبين من سطورها إلا سطراً أسود يضطرب أمام عينه، وكأنه لم يكن ينظر كلاماً مكتوباً بل شريطاً عريضاً أسود يمثل له حظه في الحب. لقد وعاه من طول ما كرره، ولكنه ما يزال يقرأ، ويعيد ما يقرأ، كأن ألفاظه تمسح ببياضها هذا السواد الماثل أمامه: (لقد تخليت عني في وقت أنا أحوج فيه إليك، وقد كان بيننا ما كان. تخليت عني ليعبث أهلي ـ بما لهم علي من حق ـ في مستقبلي. لقد أرغموني حين ردوك).

ولما أرتد الأب خائباً، وجد الابن قد أكلته الخيبة والتهمه اليأس، فعاد يهمس بينه وبين نفسه (ويلي! لقد جنيت!) ثم ابتدأ يلتمس لولده العزاء مما جنى عليه، فقدر له أن يمضي أياماً على شاطئ البحر، عند الربيع الأزرق. هناك حيث يخلع الإنسان همومه إذ يخلع ملابسه، ويتحلل

من أثقال المدينة وتقاليد الناس حين يرى نفسه كآدم وحواء قبل اتخاذ الثياب. وكان الفتى واسع الخيال دقيق الحس، فآلمه أن يرى هذا الناس قد اجتمعوا ليقتسموا الصحة والعافية، واللذة والسعادة، وهو وحده يعيش في جو بعيد عن كل ذلك، هو جو قلبه، وانصرم الصيف، وما أفاد إلا هماً على هم، ووحشة كانت في قلبه فعادت في حسه وفي نفسه.

وجلس الابن يقرأ ـ ذات ليلة ـ كتاباً في تأريخ قدماء المصريين والأب ينصت، وهو يتبين في صوته رنين الأسى والحزن. فقال: إن لنا في الشتاء لرحلة كما لنا في الصيف رحلة.

زيارة آثار أجدادنا القدماء. وطرب الشباب لهذه الفكرة الطارئة.

وطوّفا ما طوفا والفتى في نهاره رفيق أبيه، وفي الليل صديق همومه.

وجلس الفتى إلى نضد، وقد مضى الليل إلا أقله يكتب إلى التي أحبها: (ذهب عقلي واستقر هواك. وهأنذا أطوف

في بلاد وقرى لم أنزل بها من قبل، ولم يزرها أبي من قبل أيضاً. يظن أبي أنني أفرج عن نفسي، وأراني شريداً لأنني أرغم على ذلك إرغاماً. يؤمر ليطيع كالإنسان الصناعي لا يدري ماذا يقال، ولا ماذا يُفعل؛ وهم يسخرون من الإنسانية إذ يسمونه الإنسان. أبي يرى في كل ذلك لذة، أما أنا فلا أرى هنا ما يلذني لأني بعيد عنك. والآن وقد بلغنا أسوان بقي علي أن أصف لك الخزان العظيم الذي يترك لأرض مصر جميعها فضلة ما يمسك. إنه في رأسي الآن يجيش ويضطرب، وغداً كيف أراه أمام عيني؟ سأذكرك هناك، يا فتاتي، وأذكرك. . .).

وعند انبثاق الفجر انفلت من الفندق ليضع بعض قلبه في صندوق البريد وعلى خزان أسوان سار مطمئناً، وهو يعجب بما يرى؛ عن يمينه طود من الماء، وعن يساره رشاش الماء المنسكب، أمواجاً تتلاطم، كأنها في مضمار، أيهما يبلغ الغاية أولاً؟ وعلى سور الخزان المبني من حجر الجرانيت، وقف يتكئ على حاجز قصير هناك يطل منه على الماء يتدفق من فتحات الخزان حياة، والخواطر تتدفق في

أعماقه شجواً حزيناً يبعث الألم. وأخذت الفتى روعة ما رأى وأحس كأن الماء الذي يعترك في أسفل يجذبه ليحمله إلى من يحب. ورأى الرشاش المتطاير تنعكس عليه أشعة الشمس فترسم عليه قوساً ذات ألوان جميلة، كأن عروساً في ثوب زفاف تتراءى له بين مرآتين، ولكنه لم ير فيها إلا العروس التي فقد، تبتعد بها الأقدار في صحبة رجل غريب. ورأى الماء يتسرب من بين الصخور كما يتسلل القدر في تأريخ إنسان ليضع فيه مأساة أو يصنع حادثة.

ومضى الفتى يتخيل فيمعن في الخيال، والماء تحت عينيه يموج ويضطرب ويزأر متدفقاً مكتسحاً في بطش وعنفوان؛ فما يرى الفتى بين الموج والزبد إلاّ صورة واحدة: صورة الفتاة التي بعد بها عنه عنف القدر وسلطان التقاليد.

ورجع الأب ليصحب ولده فيعودا، ولكنه انطلق يعدو حين رأى ابنه يوشك أن يتردّى. فما بلغ إلاّ ليشهد آخر مأساة للشاب تتلقفه الأمواج.

يا يد الشيخ أنت التي دفعته إلى هذه الهوة فما كان لك أن تنقذيه. . . !

يا تجارب الشيخوخة كم أنت قاسية! لقد أردتِ أن تزرعي السعادة فجنيت الشقاء. لقد كنت كبيرة فلم تفهمي لغة الشباب، وكنت مادية فلم تفهمي حديث الروح، وكنت صلبة فلم تعقلي كلمات القلب. هل أنت يا تجارب الشيخوخة إلاّ خرف الهرَم ونكسة الإنسانية. . ؟

ألا ليت الشباب وليت الهَرَم. . . ولكن ماذا يجدي، ماذا يجدي؟ ليت شعري هل قُدِّر للإنسانية ألا تبلغُ سعادتها إلا على جسر من الضحايا؟ فيا ويح الشباب ويا ويح الهرم!

أهل ووطن

أرخى الليل أستاره السود القاتمة على دنيا غضبى تزمجر في صوت عاصفة هوجاء، وسماء ينهمر منها سيل دافق، وقد قر كل إنسان في داره، ونامت الحياة في كل حي، والفتى جالس إلى موقد في زاوية الحجرة، تغمره لجة من الأفكار المضطربة، والخواطر المتناقضة، فتحجبه عن دنيا الناس.

لقد رأى نفسه تعصف بها حادثات الأيام فتذرها بدداً، فإن مد يده ليجمع أشتاتها لم يجد منها إلا صبابة من نفس لا تستطيع أن ترد إليه جمال الحياة التي عاش شطراً منها بين أهله وذويه، في وطنه الأول حيث ملاعب الطفولة ومراتع الشباب. وجاءته الذكريات من أقصى الطفولة تحمل على أجنحتها لذائذ ولذائذ لتنصَّب في قلبه هموماً وهموماً، واضطربت جوانح الفتى أن وقف خياله عند الساعة التي أفزع فيها من وطنه وأهله فبكى بكاء الثكلى تفقد صبرها حين تفقد قلبها. ما الذي أزعجك عن وكرك أيها الطير

وأنت ناعم على فَنن تغرّد، ترى كل مباهج الحياة عند هذا العش الصغير؟ لقد ضاقت بك الدنيا لأنك تركت قلبك هناك. . . هناك في هذا العش. . . !

لم يكن الفتى كَلاً على أحد، ولم يكن معدماً، ولم يكن ضعيفاً ولا عاجزاً، ولكنه هجر وطنه وأهله حين لم يجد فيها جمال الوطن ولا عطف الأهل، وحين لم يجد بين أهله قلباً كقلب أبيه ينبض له نبضات الحنان والرحمة، ولا رجلاً في رجولته يفيض عليه من بسمات نور الحياة وجمالها.

ووقف خيال الفتى عند الساعة التي همَّ فيها يفارق وطنه وأهله تتجاذبه عاطفتان: قلبه من خلف، وتأبِّيه أن يقيم على الضيم من أمام! ثم غلبته كبرياؤه فانصاع لها تقوده إلى حيث يجد أهلاً غير أهله، ووطناً غير وطنه؛ أو لا يجد. . .

ماذا كان؟ ماذا كان أيها المنزوي في ناحية من حجرة تحدث نفسك حديث الماضي؟

مرض الفتى فراح يَطبّ لمرضه في عزم الشباب وقوته، وأريد على أن يلبث في مستشفى حيناً، فما خاطب أهله في

شأنه، وغاب عنه أن المرض ألم في الجسم وقلق في النفس، وأن الشفاء يحمل إلى المريض على كفين: كف الأسى وكف الطبيب معاً.

لقد خاف ـ بادئ الرأي ـ أن يفزع أهله أن ساق إليهم الخبر في صورته المزعجة، فاستأنى حتى ينزع الطبيب مشرطه، ليرسل إليهم خبراً هادئاً فيفدون على مهل.

ونفض جملة حاله أمام ابن عمه الشاب فلم ير هذا في حديثه إلا صفحة من الاعتداد بالذات، والتفاني في الوثوق بالنفس؛ ثم نظر إليه نظرات ذات معنى وقال: (أيضيرك أن تستعينهم على مرضك ووحدتك؟) فقال الفتى: (لا ضير؛ غير أنى أريد أن أفاجئهم بالخبر) قال الشاب (أفترانى أملأ فراغ قلبك حيناً من الدهر؟) قال: (ولم لا وقد عرفتك منذ نشأتي تفيض عطفاً وحناناً، وتسدي النصيحة خالصة للحب وللقرابة، وتنير لي طريق الحياة بحكمتك فأسير في سنا ضوء عقلك. لقد كنت لي جماعة في فرد. والآن... والآن أريد أن أعرفك في مرض.) فصمت الشاب وقد حمّله الفتى العبء وحده...

وحمل البرق رسالة الشاب (فتاكم في مستشفى (كذا) يطب لمرضه وينتظر قدومكم، لا خوف...) ثم انطلق الشاب يحمل إلى مريضه خبر الرسالة.

هل وعى المريض ما قاله الشاب الباسم؟ لقد كانت وَخَزَات الجرح تنفذ إلى قلبه في مثل طعنات الخنجر وهو يصمد لها في ثبات وصبر، وعلى وجهه علامات الضجر؛ وكان العرق ينضح من جبينه بارداً غزيراً ليرسم عليه صورة ناطقة لآلامه ومتاعبه. وأربد وجه الشاب حين رأى الفتى تتعاوره الآلام، وتتناهبه الأسقام، ثم ابتسم في رقة وهدوء ليداعب صاحبه وينزعه من آهاته العميقة، ولكنه كان يجهد نفسه ليرتد إليه جهده خائباً مخذولا.

وفي أنّة المحزون انقلب المريض إلى ابن عمه الشاب يقول: (ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟ أنني أريد أخوتي وأعمامي وأهلي.. آه ما شعرت بالوحدة كاليوم...!) ورنّ صدى هذا الصوت الضعيف في قلب الشاب طعنات من يد القدر فراح يقول له...

ومضى يوم ويومان وثلاثة . . . ويد الطبيب تمر رفيقة على جرح المريض فيلتئم صدع منه على صدع، وتنفرج في قلبه صدوع وصدوع، لأنه لم يفز بعد برؤية أحد أقربائه؛ ولم يستشعر لحنان إلا من قلب هذا الشاب الذي يختلس من أوقات عمله فترات من فراغ يقضيها إلى جانب مريضه يواسيه ويعطف عليه ويحمل إليه ـ فيما يحمل ـ هدية صغيرة، تنتزعه حيناً من أفكاره المظلمة . . .

واستطاع الفتى أن يجلس إلى ابن عمه يحدثه: (ماذا جرى كأنك لم تقص على أهلي خبري. لقد مضى أسبوع ولم يزرني سواك. أنك تملأ قلبي سلوة وعزاء بجمال جلساتك القصيرة، ولكن . . .) وراح الشاب يتلمس لأهله الأعذار: (من ذا يستطيع أن يقول سأفعل . . . لعل حادثاً لم يترام إلينا خبره حال بينهم وبيننا . . . واضطربت الكلمات على شفتي الشاب حين أراد أن ينزع عن صاحبه بعض أفكاره، وحين أراد أن يقول له أنه أصاب الهدوء والراحة حين عاقهم ما عاقهم عن أن يسرعوا إليه.

اضطربت الكلمات على شفتيه لأنه كان يسمع من أقصى ضميره صوتاً يقول: (أن لا عذر . . . لا عذر اليوم!) وكان يرى في إبطائهم استخفافاً وامتهاناً، غير أن حكمته أبت إلا أن تسدل على عيني الفتى ستاراً من الوهم. وما كان للفتى أن يسمع، وأن سمع فما كان له أن يصدق، فهو وحده يشعر بالوحدة حين يخلو إلى نفسه، وهو وحده يحس ألم الصدمة. لقد أراد أن يفجأهم بخبر هادئ فانصرمت أيام وما رآهم. وتماثل العليل للشفاء، وهمّ يريد داراً غير هذه ولم ير منهم أحداً. يا ويح هذا الفتى! لقد راح يطلب الشفاء من علة في جسمه، فملأت الأيام قلبه علاً سلبته لذة الشفاء.

وجلس الفتى إلى عمه يعاتبه: (أفكان من العطف أن أنبذ في حجرة، وحيداً، متألماً، مريضاً، أقاسي ما أقاسي فلا أجد منكم من يزورني أو يكتب إلي؟ لقد كان أبي منكم بالمكان الذي تعرفونه، وكنت من أبي من تعرفون؛ أفلا ترعون حقه في أبنه الملقى على سرير في حجرة موحشة لا يجد من يواسيه إلا ابن عمه الشاب؟).

وأحس العم عظم الخطيئة فراح يعتذر: (لقد حجبنا عنك موت إحدى قريباتك) وانطلق الفتى يقول: (لقد سعيتم إلى الميت وقد انتهى، ولبثتم حول قبره أيام تبكون، لتتركوا الحي الذي لا هو بالحي ولا هو بالميت يستروح نسمات الحياة منكم فما يجدها. أفبعدَ هذا تزعمون، وتزعمون. . . ؟) وسبقت زلة من لسان العم: (ولكن. . أن لك لهنات!) فأسقط في يد الفتى أن سمع عمه يتشفى، وآله أن ينتقم أهله.

لقد زل الفتى مرة وكل فتى يزل، وما كان لهم أن يعاقبوه وهو يحن إلى بعض عطفهم، وما كان لهم أن ينبذوه في الهاجرة وهو المشوق إلى فيء ظلهم. أي أهل؟ وأي إنسانية؟ واندفع الفتى المغيض: (هذا وقت تنسى الهنات، وتنطوي الزلات. أن لي لهنات لأني لم أبلغ سن العقل، ولكم أخرى لأنكم لم تبذلوا النصيحة. ولقد كفاني أن تبدي لي الأيام ما كان خافياً، وأن تكشف لي الشدائد عن أشياء كنت أجهلها، وعن أخلاق ظننتكم ترفعون عنها.) ثم غمرت الفتى آلامه فأمسك، وترقرقت في عينه عبرة

حبستها الكبرياء فما تبرح، غير أن أحزانه ثارت في نفسه فقال: (لقد ظننتكم أهلي، وركنت إليكم لأنكم أهلي، وشمت الخير فيكم لأنكم أهلي. أما الآن فيا خيبة الرجاء ويا ضيعة الأمل!).

ونزلت في العم سورة من غضب أن رأى الفتى الطائش يلومه فيشتد في اللوم، ويعاتبه فيسرف في العتاب، وألَم أن يقع بينهما تنابذ، ولكن الفتى كان قد صهرته الفكرة في بوتقة من الأحزان حين رأى عمه يتعلق بأوهى الأسباب بعد إذ عاقبه أهله على غير جريرة، في جفاء وغلظة، فرجع إلى نفسه يحدثها ويرغمها على أن تلقي السلم، فألقت واضطربت الخواطر في رأس الفتى، فتركته موزعاً ينحى على نفسه باللائمة أن قال. .

ولشد ما آله أن يكون هو ابن أبيه، ووحيده، واقتراحه على الله حين أعجزته الأيام عن أن يكون له ولد، والأمل الباسم في شيخوخة الشيخ وهو يدب على عصاه في طريق الفناء؛ ثم يرى أهله ينبذونه في مستشفى، ملقى على سرير، في حجرة موحشة، لا يأنس إلا بوجه ابن عمه

الشاب عصر كل يوم، ثم هم يغلظون له في الحديث، ويشتطون في العقاب. ولشد ما أحزنه ألا يكون له في هذا العالم إلا ابن عمه يحنو عليه، وينظر إليه نظرات فيها العزاء وفيها السلوة، ويدخل إلى نفسه بكلام في رقة الأصيل لينسيه بعض ما همه؛ وهو كان يرى ـ عن كثب ـ الفتى أو الشيخ من أسرته يصيبه بعض ما أصابه هو فينطلق إليه أبناء الأسرة زمراً زمراً يواسونه، ويعطفون عليه، وينزعون عنه آلامه وأحزانه. أما هو. . . أما هو. . .! وتناهبته الآلام: آلام المرض، وآلام الوحشة، وآلام عزوف أهله عنه، فأخفى ضعفه المنسكب من عينيه في منديل.

وخرج الفتى من لدن عمه مطوياً على آلام مبرحة تحز في نفسه، وتعض على قلبه حين رأى قلوباً تأكلها أحقادها، وعقولاً تعصف بها ترهاتها، وضاقت الدنيا في عينيه حين انهار مثله الأعلى حجراً حجراً بعد ما رأى من عمه وما سمع، فهام على وجهه يطلب الفُسحة في أرض الله. . .

وهبت أول نسمة من نسمات الفجر تشهد قلباً كبيرا ينزح عن وطنه، ويهجر أهله إلى حيث تتقاذفه مطارح النوى، إلى حيث لا ينبض لذكره قلب. . .

وانصرمت سنون ألبست الفتى شيخوخة باكرة، ورسمت على فوديه آثار حادثة مروعة استقرت في خياله فما تريم، لقد سكن إلى وطن وأهل غير وطنه وأهله، وقلبه ما يزال عند الساعة التي أفزع فيها عن وطنه وأهله يبكي ويبكي. . .

ليتك نسيت أيها المنزوي في ناحية من حجرة تحدث نفسك حديث الماضي، ليتك نسيت أنك كنت. . .!

أثبتت مرفقيها فوق المنضدة، وأسندت رأسها بكفيها وعيناها السوداوان شاخصتان نحو نقطة مجهولة وهي تفكر، وكان نظرها الحاد يرسل شعاعاً زاد لمعانه سواد المقلتين ولون الكحل والحالك.

وها قد مضت بضع دقائق بدون أن تمس شفتاها هذا القدح البلوري وتذوق هذا الشراب السائغ.

لمَ كانت غارقة في بحر عميق من التفكير؟ وما الذي كانت تفكر فيه؟ وما عسى أن يدور في هذا الرأس المتوج بالشعر الأصفر المقصوص على آخر (مودة)؟ وهل هي كاذبة حتى تفكرها العميق يا ترى؟ وهل يحاول هذا الرأس أن يخدع نفسه أيضاً؟

نظرت إليها نظرة الفاحص المدقق، فوجدتها قد غيرت شكل حاجبيها بالنقوش والتخطيط الأسود فحرمته تلك الصورة الطبيعية التي صورها الخالق فيها. أما الحمرة التي تبدو على وجنتيها فلم تكن ذلكم اللون القرمزي الذي

ابتدعته يد القدرة فيها، بل كانت مفعول الأصباغ، وأضاع هذا أيضاً شكله الطبيعي. ونظرت إلى شفتيها فإذا لونهما ليس ذلك اللون القاني الذي أودعته يد القدرة في شفتي حواء! . . ثم استمعت إلى حديثها فإذا صوتها ليس ذلك الصوت الملائكي الذي كانت تناجي به أمها وهي في المهد صبية، بل يكاد يكون خشناً من تأثير الخمر والسهر.

ـ فيم تفكرين؟

ظلت جالسة في مكانها لا تتحرك ولا تتململ ولم تجب على سؤالي هذا بغير أنة طويلة.

ـ أوه. . .

ولو كان بين ذرات الهواء بارود لأشعله هذا الشهيق الذي خرج من صدرها كما يشتعل الغاز إذ تمسه نار.

ـ إنك تتألمين هذه الليلة.

ـ إني أحب. . .

ـ أوَ تحبين أنت؟

وكانت لا تزال محافظة على هيئتها. .

ـ إنك لا تصدق ذلك، أليس كذلك؟

كانت جالسة معي كي أنعم عليها بثمن شرابها، وكنت أعرفها منذ أمد بعيد. . . منذ صباها، ولم تنس أن تفاتحني ساعة أن اقتعدت مقعدها بجانبي بعزمها على الشرب بقولها:

ـ أريد أن أشرب اليوم.

ولم أرفض رجاءها هذا فأمرت لها بقدح من الشراب لا إكراماً لسواد عينيها ولا حباً بجمالها، بل شفقة عليها ورحمة بها، فلقد كنت أراها كئيبة حزينة هذه الأيام.

ـ ومن تحبين؟

فرفعت رأسها من بين يديها كمن أفاق من ذهول عميق وأجابت:

ـ إن من أحبه (نكرة).

وكأن سؤالي هذا قد أثار منها سراً دفيناً وهاج لها ذكرى أليمة حتى راحت تحرق الأرم وتهدد الهواء بقبضتها كمن يتوعد أحداً. . . فتفرست في وجهها ملياً.

فدمدمت بكلمات غامضة. . .

ـ لِمَ تتفرس في وجهي هكذا كأنك تعرفه؟ أو كأنك تقول لي بأنه (معلوم) لديك! إنه (أحد النكرات)!. فلا تتعب نفسك في معرفته سدى!

قالت ذلك وأنشبت أظافرها الحادة في خديها من فرط تأثرها وابتسمت ابتسامة الحزين طفح كأس اصطباره:

(هو أحد (النكرات) أما إنه لم يكن كذلك؟ فلأن هؤلاء (النكرات) يفهمون أقوالنا ويتكلمون مثلنا ويشعرون كما نشعر. ويرون كما نرى! أما أنتم! فإن تكلمنا معكم اضطررنا إلى أن نزن كلامنا كلمة كلمة وقلوبنا تخفق رعباً، خوفاً من أن تعثر ألسنتنا وتلفظ كلمة سهواً فنصبح أضحوكة في نظركم! وإذا تكلمتم أنتم أصغينا إليكم بكل حواسنا حتى نفهم ما تقولونه. . . وترانا نعمل المستحيل حتى لا نظهر أمامكم بمظهر الجاهل الغر والأحمق البليد! ولا أقول أنتم معشر (المهذبين) المثقفين ـ لا تحبوننا نحن معشر النساء، كلا فأنكم تحبوننا ولكنكم تريدون من (المرأة) أن يكون شعورها وعواطفها جميلة، مصبوغة، مزينة، رقيقة

كوجهها وشفتيها وأظافرها! ولا تكلفون أنفسكم مشقة فهم المرأة، وإنما تريدون من المرأة أن تفهمكم!

ـ أو تحبين؟!

وكان صوتها اضطراباً كلما ازدادت حزناً

ـ (لقد أصبت في سؤالك هذا!

ـ وكيف أصبتُ في سؤالي؟

ـ لأنك عنيت به الحقيقة. . أيمكن أن أحبّ أنا، أو نحب نحن؟ حقاً أنحب نحن؟ أو تصدق أنت ذلك؟ لقد سألت نفسي مراراً. . فلقد تمرّ من أدمغتنا أفكار عوجاء وهوجاء، وترينا الأيام حوادث عصيبة رهيبة تدك أعصابنا دكًا فتجعلها واهنة القوى ضعيفة التفكير معدومة المقاومة تفقد معها خاصة التفريق بين الشعور الذي نشعر به من صميم القلب، وبين الإحساس الذي نحس به لمجرد اللهو والعبث، وفي أيهما نحن صادقون. . . ومن ثم أنتم! . . آه منكم!!

قالت ذلك وصرَّت أسنانها وضربت الأرض بقدميها كمن يحاول أن يسحق شيئاً سحقاً، أو يقطعه إرباً إرباً.

نحن نخدعكم ما دمتم على وجه البسيطة ونسيء إليكم دواماً. أليس كذلك؟ ولكن ماذا تقولون في الإساءة التي تسيئون إلينا بها أنتم معشر الرجال؟

أكبر الإساءة التي تُرتكب نحونا هي إساءتكم. . نصدُق لكم قولاً وفعلاً فلا تثقون فينا! وإذا ما أحببناكم فلا تصدقوننا! نقسم لكم الأيمان المغلظة فلا تؤمنون بنا!! وتشتبهون حتى في طعامنا وشرابنا! والشبهة مرض يسري أيضاً وينشب أظفاره فينا، ونأخذ نشتبه حتى في أنفسنا فنحب، فتأتي الشبهة على بالنا فتحملنا على الشك في حبنا هذا! وتنغص منا العيش. . وتتسع دائرة الشبهة هذه فلا نثق حتى في أنفسنا!

تحسبون أننا نحب من أجل المال. أو يظهر أننا نحب من أجل المال! وأضرب لك مثلاً. . أنا ذلك المثال. فأنا أيضاً امرأة أحب من أجل المال، أليس كذلك؟

قالت ذلك وتوقفت عن الكلام ومدت يدها إلى القدح الذي كان أمامها فشربته إلى الثمالة.

لم يصدقوا أنني أحب حقاً . . . وهـذا الرجـل الـذي أحبه أيضاً يعطيني كل ما يربحه من عمله وأرد لـه عطـاءه . فيصرّ هو أيضاً . . . يظن أنني ما أحببته إلا من أجل المال! هو أيضاً . . . هو أيضاً . . .

وكانت أكتافها تهتز من شدة انفعالها .

حيث أننا لا نحب . . وأن قلوبنا قدت من صخر . . أو أنها لا تعرف للصدق معنى وحبنا كـاذب . . وأن أساسـنا كاذب . . .) .

وكانت عيناها تنظران نحو الباب . . وما كـادت تلفـظ الكلمة الأخيرة من كلامها حتى هبت مذعورة تطلـب مـني السماح لها بالذهاب .

ـ أستميحك عذراً، ها هو قد جاء . قالت ذلك ومدت يدها تصافحني وعيناها شاخصتان نحوه، فودعتها وأنا أنظر إلى القادم أتفحصه . . نظرت ملياً فرأيت (الخطاط) الأسود قد كسا حاجبيها لوناً غير اللون الطبيعي، ولعب (المنقاش) فيه فأضاع بلعبه ذلك الشكل الطبيعي الإلهي . . .

وهذا اللون القرمزي الذي يعلو خديها ليس ذلك اللون الذي أودعه الله في الوجنات . . .

ونظرت إلى شفتيها فما رأيت فيهما تلك الحمرة الطبيعية التي تحاكي الدم القاني . . واستمعت إلى صوتها فإذا به قـد فقد حلاوته، وليس بذلك الصوت الملائكي الساحر الـذي كانت تنادي به أمها وهي في المهد .

وشيء واحد لم يتغير فيها، ذلك هو عيناها! . . .

لقد كانت عيناها تشتعلان بنار الحرص كمـا اشـتعلت عينا حواء حينما نظرت إلى آدم لأول مرة . .

ليلة. . . من عمر فتاة!

منذ الساعة الثالثة بعد الظهر وأمينة في عراك بينها وبين نفسها. فمرة تقوم لترتدي ثيابها وتعد نفسها لملاقاة (صادق). ولكنها لا تلبث حتى تلقي الملابس وترمي أدوات الزينة مهتاجة الأعصاب ثائرة النفس. فإنها لا تريد لقاءه ولا تبغي أن تشاهد وجهه ولا أن تستمع إلى حديثه، ولا أن تبادله ذياك الحديث. فقد أصبح بغيضاً لديها، كريهاً في عينها، منبوذاً من كل عواطفها إلا عاطفة الحقد. لقد عرفته أول ما عرفته شاباً وادعاً رقيقاً ملأ أذنيها بأحاديث الهوى، وصوّر لها دنياها زهوراً ورياحين، وأضاء في قلبها نور الأمل، وأشعل في نفسها جمرة الحياة الحلوة الهنيئة، وحسبته صادقاً في قوله مخلصاً في حبه، وفياً بعواطفه، يريدها شريكة له تقاسمه نعماء الحياة وبأساءها، يبنيان معاً كالعصفورين عشاً يتذوقان فيه جمال الدنيا وينعمان فيه بسقسقة صغارهما زينة الحياة وذخر الباقية.

وكانت قد اطمأنت إليه وأنست لحبه، وبادلته النجوى كما بادلته رسائل تفيض سطورها بأشد العواطف، وتسجل في كلماتها خفقات قلبها.

وكان لقاؤهما أول العهد نادراً لا يستطيعانه، فكانت الرسائل عزاءهما وسلوتهما، ورسول قلبيهما؛ وكان والدها رجلاً شهماً قوي الشكيمة، يحيط منزله بعنايته ويتعهده برعايته، فكان الإفلات من حضانته عسيراً: ولكن الشباب لا يُغلب والعاطفة في زمنه لا تقهر، تستطيع أن تنفذ ولو في الصخر الصلد. وعلى ذلك فقد تقابل العاشقان بعد طول البعد. وبعد أن ربط بين قلبيهما مجرد النظر والميل الغريزي والخيال البارع، ووثقت الروابط والعلاقات الرسائل التي كانا يتبادلانها، والتي كانت ألفاظها تحمل من المعاني ما هو أبعد ما يكون عن الحقيقة لأنه نضح الخيال وثمرة الأمل الواسع والرجاء الفسيح.

ولكن المقابلة وتكرارها مرة أخرى باعدت بين العاشقين، فقد عرفت من أمره ما غاب عنها بين سطور الرسائل، فهو يريدها كما يريد الرجل المرأة، تدفعه شهوة

الشباب الغلابة التي تتشكل في صورة العاطفة وقد تسمو وترقى، وتأخذ هيكل المثل الأعلى ولكنها لا تلبث عند اللقاء واللمس وتذوق القبلة والعناق أن تنكشف وتتساقط جافة صفراء من فوقها ومن حولها الأوراق التي كانت تسترها مخضرة منداة، عليها طلاوة الغضارة ورونق النضارة. ويصفق في ذلك الكيان البشري كفّا الرغبة فيزلزل الجسم ويخون اللسان صاحبه، وتكشف النظرات خديعة الخيال.

أدركت (أمينة) كل هذا، وكشفت من أمر صاحبها ما رابها أول الأمر، فتعللت بالآمال واستنجدت بخداع نفسها، ولكنها لم تستطع الثبات وأيقنت في آخر الأمر أنه باطل ما أملت، وخيبة ما رجت، ووهم ما تخيلت، وأن العش الذي بنته في سبحات الروح إنما هو في الحقيقة كهف مظلم ينتظرها فيه إنسان في صورته الوحشية الأولى، أو بالحري حيوان على أديمه طيف إنسان! فجفلت ونفرت وارتاعت، وكان عنصر نفسها قوياً فلم تستسلم أو ترتمي حطاماً وتتكسر هشيماً، فأعرضت وصدت عن (صادق)

وأرسلت إليه تعلنه بالقطيعة وتحول بينه وبين قلبها وبين جسمها، وتحذره أن يعاود أمره معها أو يحاول الاتصال من جديد بها.

ولكن الوحش الذي كان ينظر فريسته في الكهف المظلم هاجه أن تفلت في لحظة قد أعد فيها الوقود، وتلهب سعير ذلك الوقود في كل قطعة من كيانه، ونادته غريزته أن لا بد من الفوز ولو بارتكاب الجريمة، فعمد إلى تهديدها وسطر لها الخطاب الآتي:

(أمينة)!

(لا تحسبي أمري من الهون بحيث تنقضين وتبرمين في حياتي بمجرد رغبتك وحسب إرادتك. أنت لي، قلباً وجسماً، ولو اصطف أهلك جيشاً، وأعدوا من السلاح أشده وأقتله. فارجعي إليّ وعودي إلى أحضاني، وإلا فليس في يدي غير الانتقام، وعدته جاهزة، وسلاحه مرهف، وخطاباتك أمامي الآن بخط يدك، أرسل بعضها إلى أبيك، وأضعها في يد زملاء أخيك بالمدرسة، وفي كل صالون من جيرتك، فتنهال فوق جسمك الذي تضنين به

على قبلاتي ومتعتي، العصي والسياط، وينتشر العار حول اسمك، فينالك من رفيقاتك الخزي ومن الراغبين في زواجك الصد والبعد.

إني أنتظرك في الساعة الخامسة من مساء اليوم في مكان لقائنا المعروف. فإن لم تحضري ففي الساعة الثامنة غداً صباحاً سأبدأ انتقامي وتكون في يد أبيك رسائلك، ولقد أنذرتك فأعذرت)

(صادق).

لم تكن أمينة تترقب وقوع هذه الكارثة، وكانت تحسب أنه يكفي أن تعلنه بالقطيعة حتى ينقطع، وأنه حسبها ما تعاني من ألم الخيبة وصدمة الفشل.

لقد كان أول حب نما في قلبها، وكانت فجيعتها فيه لا تقل عن فجيعة الأم الشابة في وليدها الأول الذي لم تكن تصدق أنه يموت من بين يديها، فأعدت الآمال وحاطته برجاء نفسها المطمئنة.

ولقد كان صادق في نظرها شاباً وادعاً هادئاً، ثم رأت منه جنوحاً إلى تكييف العلاقة التي بينهما بصورة لا تريدها.

ولم يكن يخطر ببالها أنه سوف ينحط عن هذا درجة بله درجات فيهبط من السماء التي كان يتيه فيها ملكاً فيصبح مجرماً كملايين المجرمين الذين يملئون فجاج الأرض!

إنها نادمة على ما فرط منها من التسرع في مبادلتها الحب لشاب عرفته بالنظر ولم تعرفه بالفكر ولا التجربة، ورأت في نفسها مجرمة في حق نفسها، فهي تريده عاشقاً روحياً عذرياً، ينظر إليها كزوجة المستقبل، مع أن حبهما كان وليد النظرة، ولم يكن ثمرة التعاطف الروحي. . .

إذن هي لم تحبه؛ لم تعشق هذا الإنسان المدعو (صادقاً)، ولكنها أحبت (محبوباً)، رجلاً، لأن (سالبها) الروحي كان معداً (لموجب)، بصرف النظر عن شخصية من يمثله، فأي شاب كان قد حل محله جديراً بأن ينال مركزه في قلبها.

وهذه هي الخفقة الأولى للحب، تتكون عناصرها بسرعة البرق، وتعيش في قلب صاحبها بلهاء! والسعيد من فارقته وشيكاً، والشقي من أطالت رفقتها معه وأثمرت له

زواجاً، أو عشرة محرمة، كلاهما يفضي بحياة صاحبه إلى التعاسة.

مرّ كل هذا بخاطر أمينة، ولكنها تذكرت أن هذا الشاب الذي يكتب مثل هذا الكتاب ويتقلب مثل هذا التقلب، لا يحجم عن تنفيذ تهديده، فهو لابد فاعل ما انتوى؛ وغداً في الصباح ستقع في يد أبيها رزمة من الأوراق بخط ابنته التي يعتقد أنها قديسة، والتي يعيش من أجل رفاهتها وسعادتها، ويحوطها بحنانه وشدته كي يبعد عنها عناصر الشر والسوء.

إن التفكير في هول السعير كان ألطف وقعاً عندها من التفكير فيما عسى أن يفعل أبوها، وهو ذلك الرجل القوي الذي يبعث الرعب في نفس كل من حوله من نظرته، والذي إذا قدم البيت شاع فيه السكون وعقد الصمت ألسنة سكانه، والذي يضرب المثل بالمصلحة الحكومية التي يديرها من حيث إنجاز العمل فيها والهدوء الذي يهيمن على نواحيها، والذي يخافه أهل العزبة خوفاً لعلهم ـ بينهم وبين أنفسهم ـ لا يخافون الله مثله.

العزبة! لقد مرت على رأسها ذكريات ذلك الشاب القروي الذي يسكن العزبة، والذي اتهمه شيخها بأنه يتصل بفتاة قروية مثله، فأحضره أبوها وجلده بالسوط حتى كاد أن يموت، وأجبره على الزواج منها والرحيل عن العزبة!

ترى إذا كان هذا فعله بالقروي الحقير، الغريب عنه، فماذا هو فاعل بابنته، عرضه، دمه ولحمه؟!

أتراه إذا قرأ خطاباتها إلى صادق، وهي تدعوه فيها (حبيبها) و (أملها)، والتي تسهب فيها في شرح عواطفها وما يخالج فؤادها من عشق مبرح وهوى جائح، والتي تصف فيها سهرها الليل ومناجاتها إياه، وتفكيرها في السعي إليه وهجران الدار إلى لقائه، لولا ما وضع أمامها من موانع، والتي تذكر في بعضها كيف حطمت هذه الموانع ولاقته؟!...

وكانت كلما تذكرت أباها عندما يدرك أن ابنته الصغيرة كانت تخدعه وتسخر من قواعده المقررة في الدار، وتعصي أوامره، وتتستر بالأعذار الكاذبة لتلاقي... عشيقاً لها! ينتصب شعر رأسها فزعاً وترتعش كمن مسه تيار كهربائي،

وتتساءل : يا ترى إذا رحم شبابها ، وذكر أنها كبده وثمرة حشاه ، هل يكتفي بقتلها برصاصة تودي بحياتها دون أن يطيل عذابها؟ !

عند هذا الخاطر كانت تضعف أمينة ، فتقوم من نومها إلى ثيابها ترتديها تنوي الذهاب لملاقاته والتوسل إليه كي يقلع عما قطع فيه بعزمه ، لعله يلين ويرفق بحالها ، ولكنها سرعان ما ترجع عما نوت ، وتظهر لها خسة هذا الشاب وحقارته ، وكيف أنه لجأ إلى التهديد بدل أن يلجأ إلى الرجاء ، (وهذا الخلق من شأنه) أن يجعل صاحبه يتمادى لا يرق للرجاء والتوسل! ثم . . كيف ترجو وكيف تتوسل؟ وترجو من؟ هذا الوضيع؟ إن الموت أحب إليها من أن تفعل ، وملاقاة حتفها أيسر من تحطيم كبريائها وعيشها ذليلة يتصرف في شأنها رجل تكرهه ، بل ذئب يشتهيها ، وهي كالأمة ، لا تملك إلا الرضاء والتسليم .

ترجع فتخلع ما لبست وترتمي محطمة على الأريكة وحياتها أمامها مظلمة لا ينبثق منها نور ولو من بعيد .

ثم تتذكر تهديد صادق لها بأن يعرض رسائلها على زملاء أخيها في المدرسة ، وتتصور أخاها الشاب الكامل ، البسام ، المرح ، المعتز بقوة عقله وقوة جسمه ، فهو الأول بين أقرانه ، وهو بطل المدرسة في الملاكمة ، وهو يعد نفسه ليصبح ضابطاً . كيف يكون حاله لو شاع هذا الأمر بين زملائه وأصبح عرضة للازدراء والتحقير والتعيير؟ ستتحطم كبرياؤه ويمشي بينهم منكس الرأس عاني الجبين .

يا ترى هل ينتقم منها هو الآخر ، أم يكفيه ما يحل به هو نفسه؟ إذن جنايتها مزدوجة . لقد حطمت نفسها وقتلت أخاها! ما أكره هذا الحب . ما أبعده عما يصور الكتاب والشعراء وينطق الممثلون ويرسم المصورون! إنه خداع وكذب ووهم يعيش في ظلمات الرؤوس والنفوس ، حتى إذا ما برز إلى ضوء الحياة ظهر كالمسيخ المجذوم المهزول!

وكان الليل يهبط ، وظلامه ينبث في الكون ، ونافذتها المطلة على الخلاء البعيد تسرق لها كثيراً من جمال الليل وجلاله ، ولكنها كانت ترى كل جمال مشوهاً وكل جلال حقيراً .

لم تتناول طعاماً، ولم تخرج من غرفتها. فهي تروح فيها وتجيء، وترتمي على الأرائك والحشايا، ثم تهب مذعورة كأن في هذه المقاعد جمرات تتوقد ثم لا تلبث أن تسرع فتجلس مرة أخرى وتستسلم للتفكير. . . والليل يوغل في المسير، وكأنه يسير على صدرها بكلكله، والأفكار تتوالى على رأسها سوداء فتاكة. . .

إنه قد ينفذ تهديده الأخير . . . ويعرف هؤلاء الناس عندئذ أن هذا (الباشا) الجبار الذي يشمخ بأنفه ويعتز بكرامته إنما هو أب فاسد عربيد لم يستطع أن يحتفظ بعرضه، فما باله يريد أن يملي إرادته على الناس أجمعين؟! يا له من أبله ذي غفلة!!

وأهلها وأصدقاؤها الذين يتوددون إليها ويبدون لها الزلفى، ويسعون لها بالحب سيزدرونها ويتنكرون لها ويصبحون ألسنة تذيع ما قد يستطيع أن ينشئه الخيال من قصتها.

لقد فقدت الأب والأخ والأهل والأصدقاء، وفقدت الكرامة، وفقدت آمالها وسوف تعيش منعزلة منبوذة ـ إن

عاشت ـ وسوف تموت ذليلة مزدراة إن عالجها الموت فأراحها، وسوف تتقلى ذكراها على جمر القول السيئ ما دام في الزمن أيام تمر وليالي تعقبها. . .

لا مفر إذن من الموت. فلتعجل به لنفسها لعل موتها يدفن كل هذه المصائب، وتفتدي به حياة أبيها وأخيها، ولعل الذئب عندئذ تأخذ روعة الموت وجلاله بسفالته عن أن يستمرئ السير في انتقامه إلى النهاية. . وقامت عندئذ إلى (صيدليتها) الصغيرة فانتقت منها (اليزول) (واليود).

ولكنها تراجعت تفكر. وهل من الصواب أن تثير فتنة نائمة؟ وهلا يتساءل الناس عما حدا بها إلى الانتحار ودفعها إلى معالجة شبابها الغض بهذا الدواء النكد المشئوم؟ وهل يقول الناس أكثر من الحقيقة؟ وهل تضمن هي أن يكون لدى صادق ضمير يوقظه موتها فيستحي عن الاستمرار في سفالته؟

الأوفق إذن أن تسعي إلى قتله. . . هل تقتله حقيقة؟ هل تستطيع؟ إن سلاح أبيها في متناول يدها. ولكن هل تقوى على ارتكاب هذه الجريمة؟ أتحتمل أعصاب ساقيها

السير إلى داره وارتقاء درجات مسكنه؟ وهل تقوى أعصاب يدها على حمل السلاح وإطلاق الرصاص؟ وهل تستطيع مواجهة ما يعقب الحادث؟؟

لا، إن هذا فوق الطاقة!

إذن أين المفر؟ وأين المهرب؟ لا منقذ اليوم!

اندفعت إلى النافذة، وكان الليل قد انتصف ودلف بنصفه الثاني إلى الفجر، وسكن الكون وسجا الليل، وكان يخيل للإنسان البائس الشقي أن الله مستمع إليه.

وقفت أمينة في النافذة وساءلت ربها: (يا ترى يا إلهي كم فتاة وقفت موقفي وسقطت من تأثير هذا الهول، ولم تعرف الناس أمرها، فراحوا يستعدون عليها انتقامك، ولو دروا لرحموها كرحمتك).

يا ترى يا رب أنت منقذي أم يشاء قضاؤك وقدرك أن أنحدر كالحصاة الضئيلة عندما تراوحها الريح، ثم تقذفها إلى المجرى ويلمها الخضم في أحشائه؟

إنك يا رب أنزلت المعجزات في زمن الطغيان والعصيان، وكم أريت الإنسان عجزه أمام قدرتك، من

حيث لم يكن يتصور وجودك ولا يخشى بطشك. فهل تتركني يا إلهي فريسة أمام إنسان عاجز وأنت القوي الجبار؟

إنني أريد أن أعيش. وأنت يا رب قدرت لي العيش. أريد أن أسعد، ولا أريد أن أشقي أبي وأخي. وأحب أن أقضي عمري شريفة لزوج كريم وأولاد أحباء. . عاوني يا إلهي واشملني برحمتك، إنني أمد لك يد الضراعة وقلبي يسبقني إلى ملكوتك باكياً مسترحماً.

أنت يا إله الضعفاء، يا نصير البائسين، يا رب هذه المخلوقات جميعها أدركني برحمتك فقد شملت رحمتك كل كائن حتى هوام الأرض وحشراتها تقدر لها الرزق وتعد لها الحماية والحصانة).

. . . ومرت نسمة رطبة باردة على وجهها المحتقن المتوقد فبعثت الراحة إلى أعصابها وأفسحت مكاناً للإيمان بالله والاطمئنان إلى قدرته تسري إلى قلبها الخافق المعذب ونفسها الممزقة حسرات. .

وكان الفجر بدأ يشرق بضوئه الشعري الرقيق يحمل في جبينه ابتسامة، ويخفي في يده وراء ظهره الشمس المضيئة

وهي قادمة تحمل الحياة، وتحمل الأمل الجديد لكل يائس حزين.

اغرورقت عينا الساهرة المسهدة المضناة وغسلت دموع اضطرابها. وارتاحت أعصابها ولمعت في رأسها فكرة كادت أن تثب بقلبها من صدرها.

إنها سترمي آخر سهم، فأما فازت وإما يئست ـ واليأس إحدى الراحتين ـ فبقيت تنتظر مصيرها الذي يحمله له الغيب المحجب.

قامت تحمل هذه الفكرة مندفعة إلى غرفة أخيها الشاب فأيقظته ورجته أن يستعد لسماع حديث لها هام. فقام مرحاً كعادته واغتسل وجاءها طلقاً ضاحكاً. فجلست إلى جواره وأخذت تسرد عليه كل أمرها، صريحة واضحة، فعرفته كيف ابتدأت علاقتها بصادق، وكيف استمرت، وكيف كشفت حقيقة نواياه وكيف هددها، وكيف قضت ليلتها. . . وسألته أن يقوم بواجبه كأخ وكصديق ومنقذ فوضت إليه أن يفعل شيئاً. ولو أن. . . يقتلها!

وكأن الموضوع قد أحال هذا الشاب المرح رجلاً قوياً يستمع في جد ورزانة، ووجهه ينم على أن قراره يتكون في نفسه وفي رأسه.

وما إن أتمت حديثها حتى قام يربت على كتفها بيده وكأنه يعدها بإنجاز ما سألته. وارتدى ثيابه في صمت وخرج من الدار ولم تكن الشمس قد برزت في السماء.

وانتظرت أمينة المصير مستسلمة لحكم الله أعدل الحاكمين. .

وبعد نصف ساعة رجع أخوها إلى غرفتها وسألها.

ـ (كم عدد رسائلك؟)

ـ (عشرون. . .)

ـ (هاك العشرين رسالة)

وألقى بين يديها عشرين رسالة أخذت تقلبها باكية مضطربة فرحة. حتى إذا ما اطمأنت إلى أن رسالة منها لم تغب أخذت تمزقها وترميها وقوداً لنار أشعلتها لتدفن فيها ماضيها الصغير!

وبعد ساعة كانت العربات تنقل أثاث منزل صادق وهو يسير وراءها مذعوراً لا يكاد يستطيع أن يرفع جبينه إلى منزل أمينة، فقد هاجمه أخوها بقوته وبسالته وأرغمه على تسليم الرسائل وإخلاء سكنه والابتعاد عن الحي بأكمله وإلا فهو قاتله، وارتاع الجبان وخضع وفنيت قوته الكاذبة أمام قوة الرجل الباسل. وأدرك أن الرجل الذي لا يستطيع أن يواجه رجلاً مثله أحرى به ألا يقف في وجه امرأة!

كيف تنفس في قلبها الحب

كانت تجلس هي وجدَّتها العجوز الخَيْزَبون فوق حَيْد الجبل على مقعد خشبي صنع لهما خصيصاً في هذه الجهة لكثرة ما بَسَق فيها من الأيّك. . وكانت السماء ترسل عليها مدراراً من الغيث، وكان الهواء بالرغم من ذلك دافئاً جميلاً منعشاً.

وكانت الفتاة تتلو في كتاب عن الأدب الإنجليزي، والجدة مُصغية ساكنة، فلما انهمرت شآبيب المطر أقفلت الفتاة كتابها، وراحت تصغي بدورها لهذه المحاضرة الطويلة الممتعة التي أنشأت جدتها تلقيها في حماسة عن اللغة والأدب، وعن دكنز وإليوت وثاكراي وغيرهم من فحول رجال الأدب في العصر الفكتوري وتنعى على الأدباء في هذا العصر هراءهم الذي يؤلفون فيه الكتب من غير أن تكون لهم مُثلٌ عليا يؤلفون من أجلها، ويبشرون بها بين الناس.

. .

وكانت الجدة لا تبالي أن تضرب لحفيدتها الأمثال بما ورد في قصص أولئك الفحول عن الحياة والعمل والأخلاق. . . والحب. . .

فهذه بكّي شارب بطلة قصة ثاكراي الخالدة لا ترى شيئاً في أن تنفع زوجها بمجازفة غرامية يكون فيها حبيبها رجلاً شيخاً ضعيفاً. . . وهذا لورد لستَر في قصة سكوت لا يرى بأساً في أن تُقتل حبيبته إيمي حتى لا تقف عقبةً في سبيله إلى عرش إنجلترا. . . وهذا فلان، ثم ذاك فلان. . أما في هذا العصر. . . فماذا يصنع الأدباء؟!

وكانت الأمثال التي تضربها الجدة المتحمسة تطن في أذن الفتاة الصغيرة كما يطن النحل في الخلية الفارغة. . . ذلك أن فؤادها كان خالياً من هذا الوحي الجديد الذي نبّه فيه غرائز حواء، من غير أن تعرف الفتاة علّة هذا القَبس المقدس الذي بدأ يذكو في أعماقها، والذي نعرف سلفاً أنه فجر الحب وخَيطه الأبيض الجميل.

ثم حدث أن أقبل فتى وفتاة في هذه اللحظة، وطفقا يَتَوَغلان في الجبل، فلما جاوزا، نظرت الجدة إلى الشاب

نظرة المشغوف الظميء. . . ثم رددت طرفها في الفتاة كأنما استيقظ في فؤادها العجوز ماضيه الجميل الوارف المَنَدَّى. . المفعم بالمغامرات!!

وصَعّد الفتى والفتاة. . وظلت العجوز تتبعهما بعينها المشوقتين. . . وكانت الفتاة قد حَسَرت عن ساقيها خشية أن يصيب الوحل حاشية ثوبها الوردي الهفهاف، فبدا جزء عظيم من الساقين الجميلتين. . . وكانت تدلف أمام الفتى، فحسبت العجوز وغالت في الحسبة؛ ثم التفتت إلى حفيدتها تقول: (عجيب جداً أمر هذا الفتى وهذه الفتاة! كل يوم في هذه الساعة يقبلان إلى الجبل ويصعدان فيه، ويغيبان في الدوح. . إن هذا أمر يثير الشك، ويبعث على الريب! تُرى ماذا يصنعان ثمت؟ شاب ريان يتدفق الدم حاراً في عروقه، وله قلب ينبض بموسيقى الحياة، وفم تخرج منه الكلمات عذبة سحرية، وعينان زرقاوان ترتسم فيهما صوَرُ هذه الدنيا لا كما ترتسم في عينين سواهما. . . ووجه مشرق وثغر باسم. . . يخلو بهذه الفتاة في تلك الغابة لغير ما سبب! ومع ذلك فالفتاة غضة يانعة. تتأرج كما تتأرج

الزهرة إبان الربيع ويتورد خداها كما تتورد تيجانه . . يا للساقين! ! أبداً لا يخلب ألباب الشباب مثلهما أبداً! ! . .)

ثم أفاقت الجدة من سكرتها فوجدت حفيدتها ذاهلة عن نفسها وقد أخذت القناديل الرائعة التي تحترق في سُوَيدائها تشع السناء من عينيها، وأرهفت أذنيها تتلقفان الكلام العجيب الحلو الذي كان يخرج من فم الجدة، والذي لم تكن الفتاة تحسن أن تقول مثله.

ـ (تُرى؟ فيم تساؤل جدتي عن الفتى والفتاة؟ وفيم خلوتهما بين الأيك في مثل هذا الوقت من كل يوم؟ وأي شك يثيره أمرهما ثمة؟ شاب ريان! إلا ما أجمل هذا الوصف البديع وأنا أفهم أن يكون الإنسان رياناً، ولكن ما هذه الدماء الحارة التي تتصبب في عروق هذا الشاب؟ ! ذاك شيء غريب لا أفهمه! وهذه الموسيقى التي ينبض بها قلبه ماذا تكون؟ ولماذا تكون في قلبه موسيقى؟ ولم لا تكون الموسيقى في أذنيه كما هي في آذان جميع الناس؟ أية موسيقى هذه التي تكون في القلب يا ترى. . ؟ وكلماته العذبة السحرية ما هي؟ قد تكون من صنف هذه الكلمات التي تقولها جدتي.

. . إنها تكون جميلة جداً إذا استطاع الشاب أن يقول مثلها؛ وأحسبه لا يستطيع، لأن جدتي كبيرة، وقد قرأت كثيراً في الأدب، ووعت كل ما جاء في القصص. . . وأنا نفسي لا أشعر بأية طلاوة فيما ترغمني على قراءته لها في هذا الكتاب العتيق الجاف، مع أنها تكاد ترقص طرباً عند بعض فقراته؛ ولا أدري لماذا تفرح بهذا الهراء السخيف الذي لا أفهمه. لقد قصت عليّ من أمر بكا شارب والفتاة المسكينة إيمي، وان قصارى حكمي على شارب أنها سافلة قليلة الأدب لأنها لم تحب زوجها كما أحب أنا أمي. وبمثل ذلك حكمت على هذا اللورد التاعس ليستر الذي ضحى إيمي ليتزوج الملكة. . . ولكن. . . لماذا حزنت إيمي؟ ولماذا أحَبَّته؟ هل كانت يتيمة ليس لها أم تحبها ولا أب تحبه؟ ولكن هذا كله ما قيمته إذا قيس بالموسيقى التي ينبض بها قلب الشاب. . .)

ومرت هذه الخواطر كلها في قلب الفتاة في اللحظة القصيرة التي تلت صمت الجدة، ثم سألتها حفيدة في سذاجة الصبي وطهارته.

ـ (بالله يا جدة! ما هذه الموسيقى التي ينبض بها قلب أحد من الناس؟)

وانفرج فم العجوز عن ابتسامة كبيرة، ثم ربتت بأناملها المرتجفة على خد الصغيرة، وقالت لها: (أقرئي)، وأطاعت الفتاة، وراحت تقرأ الببغاء، ولا تكاد تفقه شيئاً مما تقرأ واعتدل الجو، وسكنت الريح، واعتز النبات ينفض قطرات المطر كالطيور الصغيرة. . . وانتشرت عصافير السنونو في السهل الفياح توقع على شجيراته ألحانها، وأشرقت الشمس لتشترك في مهرجان الطبيعة بآرادها الذهبية الناصعة. . . ولبثت العجوز تنتظر عودة الفتى والفتاة بنفس مشوقة وقلب خفق، حتى أقبلا آخر الأمر، وفي وجه الفتى صُفرة وفي ساقيه رَجفة، وقد مشت الفتاة هذه المرة في إثره، لا تعرف العجوز لماذا. . .

ولا جاوزا أرسل الفتى نظرة وسنانة من عينيه النافذتين ناحية فتاتنا حفيدة العجوز. . . ثم مضى في سبيله حتى كان في سفح الجبل. . وهنا نهضت عجوزنا مهرولة إلى السفح كذلك، وحفيدتها تتعثر في خطاها خلفها، وفي قلبها

سرب من الهواجس عن هذه الموسيقى التي تستطيع القلوب أن تنبض بها. . . ثم عن هذه النظرة التي رمقها بها الشاب العابر، والتي لم تعرف بم تفسرها. .

(إنه شاب ريان كما ذكرت جدتي، وإن له لعينين نفاذتين كما قالت. . . ولكن لم ألمسه حتى أحس دمه الذي يتدفق في عروقه فأعرف إذا كان حاراً حقاً. . . وكذلك قلبه الذي ينبض بالموسيقى. . . لابد لكي يسمعها الإنسان من أن تكون له (سماعة) طبيب أو على الأقل، لابد من أن يضع الإنسان أذنه فوق صدره، ليعرف ما هنالك. . على أن وجهه أصفر كاللوتس. . فما السبب يا ترى؟ هل هو مريض. . . ؟).

وظلت هذه الهواجس تضطرب في صدرها، وجدتها تنهب الطريق في إثر الفتى والفتاة، حتى إذا كانت حذائهما، أقرأتهما سلاماً جميلاً، فرداه أحسن رد وأطيبه، وافتر فم الشاب عن ابتسامة حلوة حيا بها الفتاة. . . فلم تدر كيف ترد عليه ابتسامته. . .

وجلست الفتاة تقرأ لجدتها في ضوء مصباح عليل. وجدتها ما تلبث أن تتثاءب وتتثاءب. . . وحتى تضايقت حفيدتها من ذلك ولم تبال أن تقول:

ـ إذن نبقي القراءة إلى الصباح يا جدة، ولابد أن تذكري لي شيئاً عن هذه الموسيقى العجيبة التي تنبض بها القلوب فقهقهت الجدة حتى بدت نواجذها وقالت: هل تذكرين حينما كنت أزوركم وذهبنا في المساء إلى (السرك)؟ فلما انتهت الموسيقى قلت لكم إنها لبَاخ؟) فعبست الفتاة، وقالت: (ومن باخ يا جدة؟) فأجابتها: (موسيقي عظيم يا تلدا) فقالت تلدا: (وما شأنه فيما سألتك عنه؟) فقالت الجدة: لقد كان باخ يوقع على بيانه بأنامله، وفي الحقيقة لقد كان يوقع عليه بقلبه؟) فتجهمت تلدا وقالت: (تعنين أنه كان يتكئ على البيان بصدره؟ فتضاحكت العجوز وزجرت تلدا، ثم قالت لها: (هذه يا تلدا أشياء كالعلوم التي تتلقنينها في المدرسة، هل تستطيع فتاة في السنة الأولى أن تفهم درساً من دروس السنة الخامسة؟) فهزت الفتاة رأسها الجميل وقالت: (طبعاً هذا غير ممكن!) فقالت الجدة:

(فهذا مثل ذاك يا بنية!) ثم أمرتها أن تقرأ، ففتحت الكتاب وما كادت تقلب صفحاته باحثة عن الباب الذي كانت تتلوه، حتى تثاءبت جدتها بشدة، فجعلت تلدا تقلب وتقلب إلى أن أغمضت العجوز عينيها، وألقت على سنادة الكرسي رأسها، وغطت في سبات عميق.

وقذفت تلدا الكتاب على سريرها، ثم انطلقت إلى مكتبة جدتها فجعلت تقلب في الكتب، وتنظر إلى الرسوم والصور، حتى عثرت آخر الأمر على قصة دانتي الرائعة المسماة (الكوميديا الإلهية)، وكانت نسخة هذه القصة مصورة حافلة بالرسوم الزاهية بالألوان الطبيعية. . . فجلست تتفرج بها، وتنعم النظر فيها، حتى اهتدت إلى الصورة الخالدة الباهرة، صورة بولو وفرنشسكا، وهما متعانقان في الجحيم، وقد انطبق فم بولو على ثغر حبيبته، وراح يقبلها تقبيلاً حاراً، يخفف عنهما ما هما فيه من عذاب السعير.

ولبثت تلدا تنظر في الصورة وتتعجب. . . (ترى ماذا يصنع هذا الساب الريان في هذه النار المتقدة؟ إنه يضع وجهه

في وجه امرأة ويقبلها كما تقبلني أمي حينما أكون مغضبة! ألا يحس هذه النار المتأججة حوله؟ هل هذه المرأة ابنته؟ لا شك أنها ابنته، وإلا فلماذا يقبلها!)

ثم قرأت في أسفل الصورة هذه السطور:

(بَولوّ يقبّل حبيبته فرنشسكا في سواء الجحيم، غير عابئ بالنيران التي تشتعل في ساقيه وتلتهب من حوله. . . وهكذا قضى الله أن يكون الحب عزاء للمحبين حتى في وهاد سقر. . . فهو الماء العلوي الذي يطفئ النار المندلعة بين جوانحهم والقبلة ثمرته المشتهاة، وحَمْرُه وجناه!)

وبرقت عينا تلدا، وحملت الكتاب ذا الصور إلى حيث راحت جدتها تغط وتزعج البوم بشخيرها:

ـ جدة، جدة، استيقظي!

ـ ماذا. . . ما. . . ذا. . .

ـ استيقظي وحياة أبيك!

ـ ماذا يا تلدا؟ لماذا لا تقرئين؟

ـ ها أنا ذي أقرأ والله! واسمعي:

ثم شرعت الفتاة تقرأ السطور التي تحت صورة بولو وفرنشسكا!

ـ ما هذا يا تلدا؟! الكتاب تأريخ للأدب الإنجليزي، وبولو وفرنشسكا شخصان خرافيان اخترعهما دانتي الإيطالي! هاتي الكتاب!

وتناولت العجوز الكتاب، ونظرت في الصورة، ثم عبست وبسرت وأقفلته لترى ما هو. . .

ـ هذه كوميدية دانتي من أين جئت بها؟

ـ من المكتبة. .

ـ آه يا خبيثة. . . كان يجب أن أبقي المفتاح معي. . . الصور التي من صنف هذه الصورة، والموسيقى التي تنبض بها القلوب، من دروس السنة الخامسة، ولا تستطيع تلميذة السنة الأولى أن تفهم دروس السنة الخامسة!

وفي صبيحة اليوم التالي قرع الباب قادم فهرعت تلدا لتلقاه

ـ أهو أنت؟

ـ أجل، هو أنا!

ـ وأين الفتاة التي كانت معك أمس فوق الجبل؟

ـ في المنزل

ـ وما هذا الورد الجميل! أتُعْطيني وردة؟!

ـ إنه كله لك!

ـ كله؟!

ـ أجل. .

ـ والفتاة التي كانت معك، ألا تأخذ منه شيئاً؟

ـ إنها أختي!

ـ أختك؟ وهل أختك لا تحب الورد؟

ـ ومن ذا الذي لا يحب الورد؟ إنها تحبه جداً

ـ إذن لا آخذه كله يجب أن تبقي بعضه لأختك ثم صاحت جدتها تسألها مع من تتكلم، فقالت للشاب:

ـ ما أسمك أيها الشاب. . . الر. . . يان؟

ـ فكتور!

فصاحت تجيب جدتها:

إنه فكتور يا جدة!

ـ فتكور؟! ومن فكتور؟

ـ أجل فكتور. . . الشاب الذي رأيناه على الجبل أمس وأقبلت العجوز الحيزبون مُهرْولة فسلمت على الشاب ودعته إلى حجرة الجلوس، فدخل ومعه باقة الأزهار الكبيرة

ـ مرحباً بك يا فتكور، كم أنا سعيدة بك وكانت تتكلم وذكرياتها القديمة ثائرة كلها في صدرها العجوز والدم العجوز يتدفق في عروقها الضعيفة. . . والمفاجأة الحلوة تعقد لسانها فتأخذها ربكة مضحكة.

ـ هذا الورد جميل. . . أوه. . . ذاك سَوْسَن ما أبهاه! وبنفسج، لمن حملت هذا يا مسيو فكتور؟

ـ لـ. . . لهذه الأخت الصغيرة. . . و. . . لك يا أماه

وبلعت العجوز ريقها، ونظرت إلى حفيدتها في حنق، وقالت للشاب:

ـ والفتاة الجميلة التي كانت معك أمس؟

فقالت تلدا:

ـ إنها أخته يا جَدّة

ـ أخته؟ حقاً هي أختك؟

فقال الفتى (إي وربي، إنها أختي)

فقالت العجوز: (إذن. . . احمل هذه الباقة إليها. . . فهي بها أحق. .)

فقال الشاب: (ولكني قطفتها بِيدَيَّ من حديقتي هدية لحفيدتك!)

وتدخلت تلدا فقالت له: (من حديقتك؟ إذن أنت تملك حديقة؟)

فقال لها: (أجل، وهي حديقة غناء، تليق بك)

فقالت له: (وهل تأذن لي في زيارتها؟)

فقال: (ولم لا. . . إنك تكونين أبهى زهرة فيها. .)

ولم تطق العجوز أن تسمع إلى كل ذلك، فصرخت صائحة (كفى! حَسْبُك، أرجوك)

بيد أن الفتى ما زال بها حتى وعدت أن تزوره في صحبة حفيدتها بعد يوم أو يومين

وكثرت زيارات العائلة المقدسة لحديقة الفتى، وتوثقت بينهما عرى الصداقة والتحاب، وكانت أخته الجميلة التي حسبتها العجوز حبيبته من قبل تلقاهما فيأنسان إليها.

وذهبت تلدا مرة وحدها تزور حديقة فكتور ففرح بها أيما فرح، وقطف لها أحسن وردة وأبهاها، وجاءها بتفاحة كبيرة حمراء؛ ثم جلس بجانبها برهة، وجعل يحدق فيها بصره.

ثم اقترب منها فلم تبتعد. . .

ولمس جسمه جسمها فأحست بدفء ولكن ليس كالدفء الذي ينبعث من النار. . . ثم لمحت في عينيه شيئاً غريباً فلم تجسر أن تسأله عنه. . . ثم مد إليها يده فمدت إليه يدها. . . فأخذها في كلتا راحتيه

وتركت الأزهار تسقط على العشب أمامها

وأبصرت عَبرة تترقرق في عينيه فسألته لماذا يبكي؟ فلم يجب.

ثم ارتبك قليلاً وقال لها بلسان متلعثم: (تلدا!) فقالت له: (نعم يا فكتور؟) فقال لها والخجل يبعثر الحروف من شفتيه: (أتأذنين لي في. . . قُبلة. . .؟)

وسمعا وراءهما هاتفاً يقول:

(فرنشسكا. . . بَوْلو. . .)

فنظرا . . . فإذا هي الجدة العجوز الحيزبون

وكان هذا في سن تلدا التي لم تبلغ الثالثة عشرة . . .

وبعد ثلاث سنين أُخر . . . كانت موسيقى جميلة تصدح في حديقة فكتور ، انتظاراً لقدوم عروسه تلدا .

شباب . . .

* (بل لابد أن أذكر لوالدتها كل شيء!) .

* (يا سيدتي مالنا وللناس، حسبنا أن نأكل خبزاً ونشرب لَبناً وعسلاً!) .

* (آه . . . لا . . . نأكل خبزاً ونشرب لبناً وعسلاً ونترك هذا الموظف اللاهي يعبث بابنة صاحب المنزل! لا! ليست هذه أمانة يا متولي، لابد أن أنقذ عرض هذه الصغيرة . . . إن ليلى شابة، والشباب لا عقل له، وربما اعتدى . . .) .

* (أوه! مالك وللناس! إنهما لابد يحبان بعضهما بعضاً يا بخيتة . ألا تذكرين ما كنا نصنع، أنا وأنت، قبل أن نتزوج . ؟!) .

وتستحي بخيتة وتسكت قليلاً ثم تتنفس تنفسة عميقة وتقول :

* (الحمد لله يا متولي، لقد كنا نحب بعضنا، هذا صحيح، ولكن، الحمد لله، لم نغضب ربنا!؟) .

* (مرحى مرحى! صحيح نحن لم نغضبه قط، وأحسبه قد غفر لنا الألف ألف قبلة التي تبادلناها!).

ويشتد خجلها، وتصمت لحظة ثم تقول:

* (أنت دائماً مبالغ يا متولي! ألف ألف قبلة؟ إن هذا العدد لا يؤخذ في أقل من عشر سنين، ونحن لم نحب بعضنا أكثر من شهر!).

* (ثم انقطع ما بيننا من حب؟ أم ماذا؟).

* (بل تزوجنا!).

* (وليتنا ما تزوجنا!).

* (فأل الله ولا فألك يا متولي! لماذا يا شيخ؟).

* (لأن قبلنا كانت حلوة جداً قبل زواجنا!).

* (والآن؟ هل هي مرة؟ أم ماذا؟).

* (. . . ؟ . . .).

* (قم بنا).

* (إلى أين؟).

* (إلى السطح!).

* (لماذا يا امرأة؟).

* (لأريك ماذا تصنع ليلى مع هذا الموظف (سامي أفندي).!

وهرولا فوق الدرج ووقفا خلف (المنور) الزجاجي المطل على غرفة سامي، يريانه ولا يراهما. . .

فتي في الرابعة والعشرين ترف على جبينه سحابة من الحزن، يلونها الحب بأمواه باكية من الحنان والرحمة والهدوء. . له عينان عميقتان كأنما تخرقان حجب الزمان أو تناجيان سكان السماء؛ ينظم الشعر ويهيم بالغناء ويشغف بالموسيقى، ويجمع في مسكنه بالطابق العلوي من هذا المنزل المتوسط طائفة مختارة من التماثيل أهداها إليه أصدقاؤه المولعون به لنفر من فنانين مصريين وعرب. وهو موظف في مصرف أجنبي يتقاضى مرتباً لا بأس به، يستطيع أن يضمن به صفاءه الذي لابد منه للشعر والغناء والموسيقى. . . والحب الذي يسقي هؤلاء.

كان إذا هدأ الليل، هدأ هو إلى عوده، وطفق يمر أنامله على أوتاره في لين ورفق، كما ترى النسمات النحيلة العليلة على صفحة الغدير الصغير؛ فإذا غنى، أرسل من قلبه

ألحاناً هي لا شك روحه ممتزجة بموسيقاه؛ ولم يكن يغني إلا ما ينظم هو، لا ما ينظم الشعراء؛ وكان، إذا سئل في ذلك، يتعلل بأنه يأبى أن يكون كنادبات الجنائز، يرجعن كلاماً محفوظاً ليبكين به النساء. . . فالشعر شعره، والغناء غناؤه، والموسيقى موسيقاه، وجملة أولئك صورة روحه التي تشعر وتغني، وترن وتئن على أوتار العود.

وكانت ليلى ابنة صاحب المنزل الذي يقيم فيه سامي، فتاة في الثامنة عشرة، لها لفتة وفي عينيها سحر، وملء قلبها أماني. . . ما كاد الساكن الجديد يملأ منزلها بصباه العطر، وغنائه ذي الشذى، وموسيقاه ذات المعاني، حتى رجعت هي أصداءه جميعاً، وأحست كأن الساكن الجديد لم يأت ليشغل الطابق العلوي من بيتها، بل ليحتل السويداء من قلبها؛ فكانت كلما أقبل سامي من عمله في المساء تشعر كأن كهرباء ملأ قلبها، فهو يدق ويدق، ويخفق خفقاناً شديداً، ويسري في جميع أعصابها بكل حاجات الشباب الذي أضر به كبت المحبسين: المنزل الشرقي والتقاليد!

وكانت موجات أثيرية من غناء سامي وموسيقاه تشيع في أرجاء المنزل فتهز أركان ليلى، وتذيب في عينيها دموعاً ليست كهذه الدموع التي يحتلبها البكاء، ولكنها دموع علوية لا يدري المحب من أين تنهمل، لولا ما في أغواره من معاني الهوى. . .

وانسرقت ليلى في أمسية إلى (السطح) ووقفت مختبئة في نفس المكان الذي وقف فيه هذان العجوزان ـ متولي وبخيتة ـ يتلصصان على كيوبيد، حين يرشق القلبين الحبيبين بسهامه الذهبية!

وقفت ليلى ثمة، وتلبثت طويلاً تملأ أذنيها وقلبها بغناء سامي وحبه، ثم جعلت بعد ذلك تنسرق كالمرة الأولى، حتى تنبه غافل الشباب، فراح بدوره يرسل إليها أغانيه حاملة قبله، ثم لم يجد بأساً، وقد تأكدت بينهما أواصر الحب، من أن يغافلها وينسرق إلى حيث هي، فلا يكاد يسقط في يديها وترتبك ارتباكة يسيرة حتى يقدم إليها يده المرتجفة، فتصافحه وتنفتل منه فتطوي الدرج إلى. . .

حيث تكون بخيتة مصعدةً فتكتشف السر الناشئ الذي لما يكد يشب أو يترعرع . . .

كان سامي يجلس على كرسيه محتضناً عوده، وأمامه ليلى على (كنبة) تحدق فيه، وقد وضعت رجلاً على رجل، وبدا ساقاها الممتلئان طراوة ونعومة وحياة وانسجاماً، واتكأت بظهرها على المسند فنهد جيدها المرمري، وبدت انفلاقة الثديين من فتحة الثوب الوردي الذي كانت ترتديه، فاختلط ورده بوردها المتفتح في كل جزء من جسمها الناضج السوي، وأسندت فَوْدها[1] على يمينها قليلاً، وتهدلت خصلة من شعرها الأسود الفاحم على أصابعها فزادتها فتنة.

وكان سامي يداعب عوده، ولم يكن ينظر إلى ليلى، بل كان مطرقاً برأسه قليلاً، حتى إذا استغرقته الموسيقى أرسل من عينيه عَبْرتين لمحتهما ليلى فنهضت مسرعة وتلقتهما في منديلها الحريري الجميل . . . ثم جلست إلى جانبه،

[1] مُعْظَمُ شَعر الرأس عمّا يكسي الأُذُن

وأرسلت ذراعها البضة فوق كاهله، وأدنت رأسها من رأسه . . . ولم تكلمه!

وصمت سامي لحظة، ثم شرع يتغنى أغنية مطلعها:

إيه يا ليل، وقد طاب الهوى
وصَفَتْ أنفاسُهُ للأنفس
ما لقلبي خَفقاً؟! هل من جوى
ومُنَى نفسي معي في مجلسي؟

وكان الفتى يرسل غناءه هادئاً يترقرق في أذني ليلى، وكانت نبراته ونبرات العود تأتلف وتسري في الهواء فيرقص من أسرها لهب الشمعة التي كان سامي يؤثرها على لألاء الكهرباء كلما غنّى . . . وكلما زارته ليلى.

وفرغ سامي من غنائه، وسكنت الحجرة قليلاً، ثم نادته فتاته:

* (سامي!).
* (ليلى!).
* (هل أسعد منا حبيبان في هذه الحياة؟).
* (كنت أرجو ذلك يا ليلى . . .).

* (ولم لا نكون يا سامي؟).

* (آه. . . أكثر الناس يحبون على أمل. . . أما نحن. . .).

* (مالنا؟).

(لا شيء. . . لا شيء مطلقاً يا ليلى، لنعد إلى أحلامنا وموسيقانا فهي غذاء روحينا. دعي هذا الحديث فإنه يزعجني. بحسبي أن أكون معك لحظة بعد أخرى فأذوب وأحترق!).

* (بل سنتحدث؛ بل ينبغي أن نفكر في المستقبل، إنني لا أطيق فكرة بعدي عنك يا سامي! اغفر لفتاة عذراء مثلي أن تكلمك هكذا! لقد امتزجت روحانا فليس يضيرني أن أصارحك! لقد اقتنع قلبانا ألا غناء لأحدهما عن الآخر، فلم نجلس صامتين تلقاء المستقبل الذي يروعنا بالفراق ولا نفكر بأن نحسم مشاكله؟).

* (وهل نستطيع ذلك يا ليلى؟ أنسيت. . .).

* (نسيتُ ماذا؟ لا. . . لا تظن ذلك محالاً!).

* (ليلى! ماذا تريدين أن تقولي؟).

* (اطمئن!).

* (أطمئن كيف؟).

* (أجل، يجب أن تطمئن، لقد صممت على أمر عظيم!).

* (ليلى!).

* (بل لن تردني أية قوة في العالم عما اعتزمته يا سامي، أليس كل ما يقوله الأغبياء إنني انهزمت بديني أمام حبي؟).

* (ليلى!).

* (لينهزم هذا الدين فأنا لم أعرفه بنفسي. . . أما الحب. . .).

* (أنت جريئة جداً يا ليلى! لا. . . لا ينبغي. . . هذا كثير!).

* (لا ينبغي ماذا؟ ألست تتفق معي؟).

* (وكيف أتفق معك يا ليلى وديني يريني الله من خلال الحب؟).

* (إذن اتفقنا، إنني لم أر الله إلا يوم أن رأيتك! ويجب أن أصل إلى الله عن طريقك يا سامي. . . اهدني يا سامي. . . لا تردني بعنف هكذا، إنك مسلم رقيق القلب مرهف الحس فياض العاطفة، وإن روحك تتكلم بلسان الموسيقى يا سامي، فلا تحاول أن تكون جباراً عليَّ، لا تحاول أن تردني عما اعتزمته. . . أ. . . ألا تريد أن نأمن غائلة الفراق، والفراق الأبدي يا سامي؟).

* (وكيف لا أريد يا ليلى!).

* (ساعدني إذن، خذ بيدي إلى ناحيتك. . . سامي. . . سامي. . .).

وانفجرت الفتاة تبكي بين يدي حبيبها، وأخذ سامي يلاطفها ويرفه عنها، ولكنها دست رأسها الجميل في صدره، وأغفت إغفاءة هينة لم يوقظها منها إلا شدة خفقان قلب سامي. . . قلبه الكبير جداً، الذي أُشرب حب ليلى، وامتزجت كل قطرة من دمه بتقديسها!

* (صحوت يا ليلى؟).

ولكنها أجابته بنظرة فاتنة من طرف عينيها المبللتين بالدموع.

* (كلميني يا حبيبتي. . . ليلى؟).

* (سامي. . . اسكت! إن هذه الفترة الصامتة الباكية أسعد فترات حياتي!).

وطوقها سامي بذراعيه، وأخذ ينزح أسرار عينيها الباكيتين بعينيه العميقتين، ثم أهوى على فمها القرمزي ذي الثنايا المفلجة يقبله. . . ويقبله.

* (أرأيت يا متولي؟ هل صدقت ما قلته لك؟ والله لأخبرن أمها!).

* (بخيتة!! أنت طالق إن فعلت! يا غبية! يا أقبح النساء!).

* (أنا؟ أنا أقبح النساء؟ وأنت؟ أتحسب أنك زين الرجال؟).

* (لا. . . ولكني كنت أطمع في. . . فتاة طيبة.).

* (مثل ليلى أظن؟).

* (أجل. . .).

* (اسم الله عليك يا سامي أفندي!).

* (أحببته؟ أم ماذا يا امرأة؟).

* (صوته جميل. . . أما صوتك، فحميري خالص!!).

* (اسكتي يا خنزيره. . . هلمي بنا، كاد شباب الحبيبين يتلف قلبينا العجوزين!).

ونزل الخادمان وفي قلب كل منهما غصة تزلزله.

وبعد أيام همس الناس في هذا الحي من أحياء المدينة أن ليلى ابنة (. . .) اليهودي قد صبأت. . . واعتنقت الإسلام.

وبعد أيام أخريات، تأكد هذا الهمس، لأنها تزوجت سامي أفندي بالفعل، ونقل العروسان إلى الإسكندرية ليعيشا ثمة حياة هانئة ناعمة موفورة.

كنت صديقاً حميماً للأستاذ عزيز سامر وزوجته سلمى. أما عزيز فترجع علاقتي بـه إلى عهـد الحداثـة الأولى. وأمـا سلمى فإن والدتها كانـت وثيقـة الصـلة بوالـدتي وكانـت تصطحبها في زيارتها إلى منزلنا حيث كنت أراها يافعة تبرق عيناها ذكاء وأستلذ محادثتها في فترات قصيرة بـين والـدتها ووالدتي.

ولعلي كنت السبب في زواجهمـا لأن عزيـزاً قابلـها في منزلنا غير ما مرة، ولم يصادف صعوبة حين عقد النية على الزواج منها لا من أهله ولا من أهل الفتـاة. وعاشـا عيشـة رضية بضع سنوات ماتت في خلالها والدة سلمى ووالدتي. وكم مرة كنا نتحدث عنهما وتـثير أليمـة الـذكريات. ولم يرزق عزيز ولداً فما اهتم للأمر كما أن سلمى أيضاً لم تهتم له ولم ينشب بينهما ذلك الخلاف العهيد الذي يبعث به عقم الرجل أو المرأة.

أجل، كنت صديقاً حميماً للأستاذ عزيز سامر وزوجته سلمى حتى أني كنت أتناول طعام الغذاء أو العشاء مرات كل شهر في منزلهما الذي اشتراه عزيز على ضفة المحمودية في عزلة عن الأوساط الصاخبة وفرشه بأفخر أنواع الرياش، ووسع حوله حديقة مغروسة بمختلف الأزهار والرياحين.

ولا أزال أذكر مجالسنا فيها للأنس والسمر في أيام الربيع المزهرة، وليالي الصيف المقمرة، كما لا أزال أذكر مجالسنا بعد العشاء في قاعة التدخين على مقاعد الجلد العريضة في ليالي الشتاء الباردة، وأستار الحرير القاتم مدلاة على النوافذ، والطنافس المفروشة تحت أقدامنا تبعث في جو القاعة حرارة طيبة، بينما يتساقط المطر خارجاً بين هزيم الرعود، وولولة الرياح.

والأستاذ عزيز سامر محام معروف كثير الأعمال وافر الربح يعيش في يسر ودعة. وسلمى فتاة طيبة القلب، جميلة الوجه، أنيقة الملبس. تدير منزلها في كثير من النظافة والمرح، وتستلذ الخروج مع زوجها إلى مشارب الجعة ومساهر السينما ودور التمثيل. وكم صحبتهما إليها وكم

احتدم الجدل بيني وبين سلمى على الملابس النسائية وائتلاف ألوانها، واختلاف أشكالها وطولها وقصرها، ومناسبتها وغير مناسبتها. وكانت سلمى تحب مداعبتي وإحراج زوجها وتهمته بفقدان الذوق في هذه الأمور الهامة.

ولا أعدو الحقيقة إذ قررت أن سلمى على جانب من الثقافة يجعلها تتذوق القراءة الأنيقة، وبخاصة هذه الأقاصيص التي اكتظت بها الكتب الحديثة. ولكنها كانت تعجب كل الإعجاب بالكاتب القصصي جي دي موباسان، لأن أقصوصته نيرة مشرقة مترعة بالحياة يتدفق الذوق الفني في سطورها البارزة حتى كأنها رسم بارع الألوان تامُّ التخطيطات تكاد الصورة تنطق بين ثناياه.

وإني لأشعر بكثير من الغبطة كلما ذكرت تلك الساعات الأدبية التي مرت بنا وبخاصة كيف كنت أضحك من الأحكام الجائرة التي كان يحمل بها عزيز سامر على الأدب والأدباء فيقول لزوجته:

ـ دعي عنك هذه السفاسف! . . إن أدباءك أناس أخفقوا في عواطفهم فقذفوا بها في وجه الناس وهم يظنون أنهم يأتون بالمعجزات.

فتقول له سلمى في كثير من التهكم:

ـ أنت يا عزيز لا تفهم إلا (حيث إنّ) . . . تريد بذلك (حيثيات) الأحكام. . . وتضيف إلى قولها: أن الأدب مرآة الحياة كما يقولون ولكن (حيث إنّ) هذه لا حياة فيها.

فيجيبها عزيز بأن الأدب مرآة مشوِّهة للحياة لا تعكس إلا ما يظهر منها بينما ما خفي أكثر وأدق، وقد يكون أجل وأعظم. . . .

فأتدخل بينهما وأقول:

ـ قد يكون ذلك كذلك وكلاكما على حق. والأدب دنيا والمحاماة دنيا، قد تلتقيان وقد تفترقان. . .

وكنا نفترق عادة ولم يقنع أحد فينا رفيقه.

ولكن هذه العيشة الراضية لم تدم طويلاً، لأن سلمى كانت تمر بها السنون مقفرة الأيام إلا من زوج تعودته وخدم ألفتهم وقليل من الأصدقاء ملّت صحبتهم. وصرت أشعر

في أحاديثها بكثير من الضجر والسأم فأختصر الزيارة أو أعكس وجهة الحديث أو أنقطع عنهما أسابيع.

ولا أنس يوماً وأنا مكب في مكتبي على عمل هام إذ اندفع إليه عزيز سامر فجأة كأنه قذيفة طائشة فنهضت منذعراً أرحب به، وهو يقول:

ـ اسمع يا فريد! إن هذه الحياة لن تطول بي وإني لأختنق. لقد بلغت مناقشاتي مع سلمى درجة من الحدَّة حملتها على التفكير في الطلاق.

فسكنت روعه ولطفت من هياجه، وبين فنجان من القهوة ولفافة من التبغ فهمت أن سلمى اندفعت من طريق المطالعة إلى حد خرجت به عن التسلية إلى الجد، وأنها صارت تطبق على زوجها كل الآراء والأفكار التي تقرأها. وأنها تلح عليه في الجدل والمساجلة حتى يتبرم بها ويكاد يجنُّ من الأسئلة والأجوبة، وهو رجل لا يفكر إلا في قضاياه وملفاته، وقد أضحكني عزيز كل الضحك حينما سألته أن يضرب لي مثلاً لذلك فقال:

ـ تصور يا فريد أنها قرأت قصة من قصص موباسان حدثتني أن صاحبتها كانت إذا أرادت رجلاً لنفسها ورأت فيه شيئاً من الاستحياء والخجل تصنَّعت الإغماء بين يديه حتى يضمها إلى صدره ويغتنم فرصة إغمائها.

فتهالكت من الضحك وقلت لعزيز: إن هذا لا يوجد إلا في القصص. فتغاضب عزيز وقال: لا تضحك بل اسمع ماذا سألتني سلمى.

قلت: ماذا؟

قال: سألتني بعد أن أعربت عن إعجابها بهذه الناشرة المريضة: ماذا أفعل لو أن سيدة أغمي عليها وألقت بنفسها بين يدي. . . فأجبتها بأني أستدعي لها الإسعاف. . . فقالت لي: أنت رجل مغفَّل! ومن هنا نشأ بيننا جدل عنيف لم ينته إلى الصباح، وقضينا ليلة ساهرة في المصايحة والمهاترة.

وزاد عزيز على قوله:

ـ لذلك أرجو منك يا صديقي أن تحاول ردَّ سلمى إلى صوابها، وتحملها على الإقلاع عن هذا الهذيان الذي يقودنا حتماً إلى المحكمة الشرعية.

ووعدت عزيزاً بالتدخل، وفعلاً خاطبت سلمى في الأمر وأخذت أخضد من رغبتها في قراءة الكتب الجامحة دون أن تسترشد بدليل يميز لها الغث من السمين، والنافع من الضار. ورضيت بي سلمى مرشداً أدلها على الكتب الطيبة والأقاصيص الطريفة الأدبية التي تمتزج بالحياة من جهاتها القويمة. وصرت أشتري لها بعض الكتب التي كنت أعرف في مؤلفيها ميلاً إلى إصلاح المجتمع والمحافظة على الأخلاق.

ومضت فترة من الزمن تبينت فيها أن سلمى لم تعد تلك الزوجة المفهومة التي ترتسم على وجهها كل معاني نفسها بل أصبحت كثيرة التأنق في ملبوسها وزينتها واختيار عطورها بل صرت أراها تتعمد إثارة الفتنة بملامحها وجلستها ومشيتها، وكأنما زاد بريق عينيها السوداوين الواسعتين بما كانت توسع من أشفارهما بالكحل، وتبالغ في

توضيح أنوثتها بارتجاج جسمها في نقل خطواتها . وصارت تزيد أثوابها قصراً وتغالي في تعرية زنديها وصدرها ، وصار زوجها يشكو من هذا كله فأقول له :

ـ دع سلمى ، إنها فتاة طيبة ، وإن الزينة حياة المرأة ، ولا ضير عليك ولا عليها من الأناقة ومسايرة أزياء العصر .

وفي الواقع كان تطور سلمى بطيئاً وما كانت لتلفت نظري ونظر زوجها لولا بعض أثواب قديمة لها كانت ترتديها في بعض الأحايين فترينا الفرق بين ما كانت عليه وما صارت إليه ، ولكنني وزوجها ما برحنا نعتقد أن شغفها بالزينة نتيجة التقليد فقط ، وأن المرأة أكثر ما تتزين لتباهي بزينتها غيرها من النساء ، وأن هذا كله بريء كل البراءة ، لا يفضي ولن يفضي إلى ما لا يصح السكوت عنه .

ولقد صادفت سلمى مرات في الشارع منفردةً تدور على المخازن كما تقول ذلك كل النساء ، وأظن أني لمحت مرة شاباً يترسم خطاها وهي تشجعه بابتسامتها له ، ولكن ظهوري أمامها صرفه عنها وصرفها إليّ .

وأذكر أني فسرت ذلك بأنه حادث عادي ، ولم أشأ أن أفسر ابتسامة سلمى له سوى أنها محض توهم مني .

وسئمت سلمى من المطالعة ورغبت إليّ ألاّ أتعب نفسي في اقتناء الكتب لها ، وكنت سئمت التفكير فيما أقدمه إليها ، وهي مهمة محرجة ، فحمدت لها رغبتها تلك وفي صدري منها مرارة مبهمة . وصرت ألاحظ أن سلمى إذا جلست إلى جانبي ألقت بنفسها متهالكة على المقعد في حركة غريبة ، وكانت من قبل تقعد قعود الصراحة ، وصرت ألاحظ أنها ترنو إلي خلسة بعض الرنو بألحاظ فاترة مستطيلة ، وأني إذا حملت إليها على عادتي القديمة بعض الهدايا أخذتها بلا شكر كأنها فرض أؤديه ولكنها كانت تتحين فرصة يكون فيها زوجها بعيداً عنا فتخاطبني عن هديتي في لطف وهدوء لم أعهدهما فيها كأنما تجعل نفسها مقصودة بها باعثة عليها ، لا المنزل ولا الصداقة القديمة .

وإننا معشر الرجال ليطيب لنا مثل هذا الجو الفاتر الذي تثيره المرأة حولنا ونشعر فيه بلذة غامضة ، إلا أن هذه اللذة كانت مشوبة عندي بكثير من تأنيب النفس وكنت أشعر

بأنني لست راضياً عن سلمى الجديدة لأنني كنت أكثر ميلاً إلى سلمى القديمة المرحة التي عايشتها مع زوجها عيشة الألفة البريئة الصريحة. ومما زاد في عدم رضائي عنها أنها صارت تكثر من مخاطبتي بالتلفون وتطيل صوتها في شيء من الدلال وتسألني دائماً عن صحتي وعن ليلتي وعن إصباحي وعن إمسائي كأنني مريض تريد أن تطمئن على سير مرضه.

ومرت الأيام وهذا الجو يزداد حرارة حتى إني صرت أحس بأن عينيَّ تثبتان على سلمى ثبوت تفحص لجسمها البض، ووجهها الغض، وقوامها المجدول وابتسامتها الساحرة وجبينها المشرق، وبخاصة بريق عينيها السوداوين الواسعتين.

زارتني سلمى مرة في مكتبي وطلبت مني أن أصطحبها إلى مكتب زوجها، ففعلت، ولما كنا في الشارع، علَّقت يمناها بيسراي كأن ذلك طبيعي بيننا، ولم يظهر على وجهها أي استغراب لما فعلته، وصارت إذا جزنا عرض الشارع من

رصيف إلى رصيف احتمت بي من السيارات المسرعة، وشدت بذراعها على ذراعي في حركة عصبية عنيفة.

وصرت أفكر طويلاً، هل بدر مني شيء يدل على رغبتي في استدراجها إلي، لأن سلوكها معي لم يعد يحتمل الشك في رغبتها في استدراجي إليها؟ ووقفت حائراً بين أن أفقد صديقين أحبهما حب الإخلاص الصحيح، وبين أن أخون صديقاً ألفته منذ الصبا وأحول صداقة فتاة عرفتها متدارية بثياب والدتها ووالدتي، إلى حب لا أقدر مداه ولا نتيجته.

وكانت كل هذه الأمور تجري وسلمى لم تحرك شفتها مرة واحدة بكلمة ملتوية، ولا تنهدت مرة واحدة في وجهي، ولا لمست مرة واحدة يدي لمسة تحتمل تفسيراً أو تأويلاً. ولكن سرعان ما زحمتني الحوادث وبعدت بي عن تلك الحياة الطيبة التي أذكرها اليوم والأسى يملأ صدري، والدمع يكاد يتفجر من مقلتي.

أجل خاطبتني سلمى بالتليفون تقول: ألا تشرب الشاي معنا اليوم فإني بانتظارك في الساعة الخامسة تماماً لعلنا نخرج في السادسة والنصف إلى السينما.

وإني اليوم بعد طول العهد لا أزال أراني نازلاً من العربة أما باب الحديقة سائراً في الممشى القصير إلى باب المنزل أقرعه قرعة تعرفها الخادمة فتخف إلى الباب تفتحه وأدخل إلى القاعة التي ألفت كل أثاث من مفروشاتها.

فهذه مقاعدها المذهبة وحريرها الأحمر المجزع بالبياض، وهذه خزانة البلور التي حفلت بقطع النفائس التي يتأنق عزيز في اقتنائها، وهذه مائدة الرخام المستديرة عليها طاقة الورد الصناعي، وهذه الرسوم المعلقة التي أعرفها وتعرفني، وأحسن ما فيها صورة سلمى الزيتية متقنة كل الإتقان أم صورة عزيز ففيها سطور غامضة والنور منعكس عليها من فوق بينما وجب على الرسام أن يعكسه عن اليمين، وطالما تناقشنا في هذا الرسم وبحثنا في نظرية النور والمنظر. وهذا صندوق اللفائف مصنوعاً من الآبنوس الملبس بالأصداف أتناول منه واحدة أشعلها وأقف أمام

النافذة المطلة على المحمودية أنظر مياهها الكدرة المتدفقة إذ كنا في أول سبتمبر وفيضان النيل على أشده.

نعم لا أزال أفكر في هذا كله كأني أراه الآن ماثلاً أمام عيني. ثم طال انتظاري فقرعت الجرس وجاءت الخادمة، فقلت لها: أين الجماعة؟ . . .

فأجابت: إن سيدتي ترتدي ثيابها، وأما الأستاذ فقد ذهب منذ هنيهة. ثم نظرت إلى الخادمة نظرة لم أرتح لها.

وما هي إلا ثوان معدودة حتى جاءت سلمى يموج جسمها في دثار ياباني قد التفت به حاسرة عن ذراعيها وصدرها. وقد صففت شعرها وعقصته بمشط لين العاج قد انتظمت على حافته حجارة مبرقة، وأصلحت من شأنها في كثير من الاختصار والانسجام. فما إن رأتني حتى مدت إليّ يدها مصافحة، وقالت وهي تبتسم عن مثل اللآلئ صفاء: عفواً لقد جرى ما لم يكن في حسابي، فإن عزيزاً قد استدعي فجأة لأمر هام وهو يأسف لأنه لا يعود قبل الساعة الثامنة. وقد أوصاني أن أحتبسك حتى عودته لنصل جلسة بعد الظهر بالسهرة.

ولم أجد رابة في هذا كله بل وجدته طبيعياً وقلت لها: لعلك لولا حضوري كنت تخرجين مساءً. قالت: لا وحقك إني متعبة فاجلس نثرثر قليلاً. . .

وأخذنا في حديث عن الفيضان والبعوض، وكانت سلمى تقول إنها لم تعد تطيق السكنى في هذا المنزل وإنها سوف تنتقل إلى ضاحية الرمل حيث أكثر الأصدقاء والمعارف، ثم اندفعت في امتداح ضاحية الرمل بينما كانت الخادمة تحضر مائدة الشاي، فأصبت كوباً منه وأكلت قطعة من الحلوى، وقدمت إلى سلمى لفافة من التبغ شرعت في تدخينها، وقد قامت وقعدت مراراً تستحضر إما منديلاً أو صحفة أو ملعقة، ورأيت في تثنيها شيئاً من التصنيع والارتباك، ثم نادت الخادمة وقالت لها: إنه يمكنها الانصراف على أن تكون في المنزل في حدود الساعة الثامنة.

وشدت سلمى ثوبها على جسمها، وقعدت بجانبي، فصور الثوب أعضاء جسمها تفصيلاً، وهبَّت منها رائحة عبقة تغلغلت في دماغي، ثم مدت ذراعها وألقتها على ظهر

المقعد ورائي دون أن تمسني، ونظرت إليّ نظرة كدت أستريب منها وقالت: ما رأيك في كأس من الكونياك؟ ولم تتم كلمتها حتى وثبت إلى غرفة الطعام، وفتحت خزانة واستحضرت منها زجاجة وهي تقول: إن هذه الزجاجة تزعم أن هذا الكونياك كان شراب نابليون.

فضحكت وقلت: ونحن الآن نقلد نابليون بشربه.

وسكبت لي كأساً ومثلها لنفسها فشربنا وقد تذوقت الكأس وأعجبت بجودة الصنف فعلاً، أما هي فترشفت نصف كأسها، ثم سكبت لي الثانية.

وقد جرى هذا كله في سهولة وبساطة، وسلمى تقول: إن خياطتها أصبحت من الطمع بحيث صارت تفكر في استبدالها وقالت: إنها خاطت لها قميصاً من الحرير هو هذا الذي تلبسه ـ ثم كشفت دثارها عنه فإذا به يضم نهديها إلى ركبتيها في تموج غريب ـ وإنها تقاضت منها أجرة وكلفة لا يحتملها القميص.

وكنت تجرعت الكأس الثانية فسكبت لي كأساً ثالثة رفضتها رفضاً قاطعاً لكنها لم تصغ إليّ. ومضت في حديثها

عن القميص بينما أخذت أتمصص الكأس، ثم وقفت أنظر إليها مصغياً إلى حديثها أقول: أنتن السيدات لا تعرفن اهتماماً إلا بهذه الخرق الحريرية. . .

فقالت: ألا يعجبك حرير هذا القميص. فابتسمت، فإذا بها واقفة حيالي فاترة العينين ملتهبة الخدين، ثم رفعت ذراعها إلى جبينها وهي تقول: لا أدري ما بي. . . لعل هذا الكونياك قد دار رأسي به. فقلت: لا عليك اجلسي. ولكنها تثنت قليلاً وقالت كأنها تريد أن تصيح: فريد! فريد! اسندني إليك. . .

فذعرت كل الذعر؛ وما إن أسندتها إليّ حتى استرخت بين يدي وضمتني إليها متعلقة بي متثاقلة بجسمها عليّ وأنا أدفع بها في لطف وتؤدة حتى أجلستها على المقعد وقد تلاصقت بي تلاصقاً غريباً وشدتني إلى صدرها شداً عنيفاً.

وأردت أن أهرع إلى حيث أستحضر لها كوباً من الماء، ولكن تعلقها بي منعني من ذلك. ولا أدري لماذا خطر لي في إبراق عجيب ذاك الحادث الذي حدثني به زوجها عن تصنع الإماء. فرأيتني في موقف مدهش يقتضي بتّاً سريعاً:

إما الخيانة ومسايرتها أو القطيعة والجفاء. وكان دمي يفور ويغلي والعرق يتصبب مني ولا أعرف كيف ولا لماذا قلت لها:

ـ إياك أن يغمى عليك فإني حينئذ أستدعي لك الإسعاف.

ولا شك أنها سمعت كلامي ولم تأبه له وحسبت أكبر حساب لغريزة الرجل فأصرت على إغمائها، وتلطفت في التملص منها وتباعدت عنها ونسيت الماء والكوب والإسعاف وبقيت واقفاً حائراً، وسلمى قد فتحت دثارها وكشفت قميصها وزاد خفقان صدرها ثم أنّت قليلاً في خفوت واختناق ثم لزمت الهدوء.

فأشعلت لفافة من التبغ وصرت أذرع الغرفة ذهاباً وإياباً وأنا لا أعي ما أطأ حتى عيل صبري. وكلما طال انتظاري وتمادت في غيبوبتها كان الغضب يطرد في صدري وتقوي عوامل الشرف والصداقة والإخلاص، حتى رأيتني واقفاً أقول:

ـ هذه مهزلة مألوفة وليس مثلك من يمثلها مع مثلي. ونحن أصدقاء العمر فقد أخطأ حسابك، وإذا كنت أتقنت مثل هذه المهازل فجربيها مع سواي.

وإني لأذكر تمام الذكر أن سلمى انتفضت عن مقعدها كالنمرة الضارية، ثم لَمَّت دثارها والتفت به ووقفت في وجهي تلهث من الخيبة وتحدجني بلحظ يتقد غيظاً وقالت وهي تتلظى غضباً:

ـ أنت رجل مغفَّل.

واليوم إذ أستعيد هذه الذكريات أحاول عبثاً أن أستبين كيف مضت الأيام التي تلت هذا الحادث وكيف نزلت بي حمى شديدة استوجبت نقلي إلى المستشفى حيث قضيت أشهراً بين الموت والحياة علمت بعدها أنه لم تعدني فيها سلمى ولا زوجها. وقد فتَّت الحمى في عزيمتي وغادرتني شائب الرأس مهدوم الجسم؛ وها أنذا اليوم بعد خمس سنين أراني قد انحدرت بي السن أشنع انحدار وتوغلت في الكهولة أيما توغل.

وفي كل هذه المدة لم تقع عيني على الأستاذ عزيز سامر ولا على زوجته سلمى، ولكنني لا أزال أذكر والأسى يملأ صدري والدمع يكاد يتفجر من مقلتي أنني كنت صديقاً حميماً للأستاذ عزيز سامر ولزوجته سلمى.

تمت

المحتويات

- خجول..... ص٥
- القلب المحطم..... ص٩
- الخبز الرخيص..... ص١٣
- ألف ليلة..... ص٢٧
- لؤلؤة..... ص٣٨
- الزهرية العاطلة..... ص٤٢
- سنشيتا..... ص٤٦
- جريمة..... ص٥٠
- الضحية..... ص٦٥
- أهل ووطن..... ص٧٨
- النار المُوقَدة..... ص٨٨
- ليلة... من عمر فتاة!..... ص٩٦
- كيف تنفس في قلبها الحب..... ص١١٣
- شباب..... ص١٢٩
- الإغماء..... ص١٤١